الياســـــا

دراسة نقدية تحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها

للدكتور/سعد بن محمد حذيفة الغامدى

(الياســـا)

دراسة نقدية تحليلية واستنتاجية لبعض نصوصها

مقدمـة :

سبق أن طرقنا بعض المواضيع ، المتعلقة بشعب عرف فى التاريخ بـ (المغول) وهذه الكلمة لا تكاد تذكر إلا ويذكر معها أو يقترن فى الذهن بها اسم مشهور فى التاريخ هو «جينكيزخان» ، من تلك المواضيع ما يتعلق بتاريخ ذلك الشعب ، وكيف أسس هذا الخان دولتهم ، ثم فتوحاتهم شرقاً أو غرباً ، ومنها ما بحثنا فيه عن أرضهم وطبيعتها الجغرافية وغيرها ، ومنها ما درسنا فيه بعض عاداتهم وتقاليدهم ، ومعتقداتهم الدينية[1] .

أن الدارس لتاريخ هذا الشعب ، أو المطلع على ما صنف حولهم ، يجد أن هناك كلمة تتردد معه بين الوقت والآخر ، هذه الكلمة هى « الياسا أو اليساق أو الجاساق أو اليسق ... الخ » . لقد مر معنا ، فى بحث سابق كيف وحد جنكيز خان كافة قبائل الشعب المغولى ، المتناثرة فى كافة أراضى منغوليا ، تحت زعامته الفردية ، وحكمه المطلق . وقد كانت تعيش حياة مليئة بالحروب المتواصلة ، والغارات والأحن التى لا تنقطع بين قبائلها المختلفة وعشائرها وأسرها ، بل وحتى بين أبناء الأسرة الواحدة . بعد أن جعل الأمة المغولية قوة متحدة واحدة توج على رأسها خاناً ، ولقب « جنكيز خان » ، ذلك اللقب الرنان ، الذى يعنى من جملة ما يعنى « خان العالم ، أو حاكم العالم ، أو سلطان العالم ، والسلطان والملك المحيطى ... الخ »[2] .

كان تنصيب جنكيز خان فى فصل ربيع عام ٦٠٢ هـ/١٢٠٦ م ، حيث تذكر مصادرنا أن هذا الخان قام ، عشية تتويجه الحاكم المطلق ، فى التاريخ

---

(١) مثل « سقوط الدولة العباسية » ١٤٠١ هـ ، و« أوضاع الدول الاسلامية فى الشرق الاسلامى » ١٤٠١ هـ ، و« حياة جنكيز خان » ١٤٠٣ هـ (ترجمة) ومقالات فى بعض المجلات ، كمجلة كلية الآداب/جامعة الملك سعود وغيرها .

(٢) انظر : « سقوط الدولة العباسية » الفصلين الأول والثانى على وجه الخصوص

المذكور ، باعلان ما عرف فى أوساط الدراسات المغولية بـ « الياسا » وهى مجموعة من القوانين والضوابط ، تحدد سلوك الفرد وتفرض عليه عقوبات معينة إذا ما خرج المرء عن اطارها وأرتكب ذنباً معيناً ، كما أن من تلك القوانين ما يحدد العلاقة بين الخان والشعب .

لقد جاءتنا « الياسا »[1] فى روايات متباينة تباين المصادر التى طرقتها ، كالأرمينيه والسريانية ، والإسلامية ، واللاتينية والصينية ، إذ أن من المصنفين من جاء ببعض فقراتها فى شكل بنود ، مثل ابن العبرى فى « تاريخ مختصر الدول والذى ترجم جزء منه تحت عنوان ملوك العرب » ومنهم من تناثرت فى مؤلفه ، كالجوينى فى « جهانكشاى » ووليم الربركى فى « رحلته .. » وجون الكربينى « فى تاريخه .. » وغير هؤلاء ، ومنهم من دمج ما قيل حولها فى مصنفه مع غيرها مما أثر من أقوال جنكيز خان وحكمه ، كرشيد الدين فى مؤلفه الموسوعى « جامع التواريخ » .

ان بحثنا هذا حول بعض فقرات « الياسا » ما هو إلا اجتهاد شخصى ، ومحاولة متواضعة لدراسة بنود من ذلك القانون ، الذى ينسب إلى الخان المغولى ، وأصبح يعرف بـ « الياسا » . وسوف أحاول فى هذه الدراسة ايراد بعض فقراتها ، كما جاءت عند مصنفينا ، بعد تنسيقها ومقارنة نصوصها عند هذا أو ذاك ، ووضعها فى صيغة بنود منفردة ، ثم أجعل صيغاً معينة لبعضها الآخر ، كاستنتاج شخصى مبنى على رواية ، فى مصدر ، وردت حوله ، كما تظهر لى ، مماثلة لما ورد نصها صريحاً ، بعد تقسيم تلك الفقرات كل حسب فئته . لعل هذه الدراسة حول بعض فقرات « الياسا » تكون بادرة لدراسة أوسع فى هذا المجال ، يقوم بها باحثون فى عالمنا العربى ، إذ لا أعرف ، حسب علمى القاصر ، أن أحداً قد تناول هذا الموضوع من الباحثين المحدثين العرب فى دراسة جادة وتحليلية .

---

(١) كلمة لها معان كثيرة منها : أنظمة ، قوانين ، محرمات ، محاذير ، مراسيم ، أوامر ونواه ، مقررات .. الخ

إن هذه الدراسة عمل المجتهد ، إن أصبت فهذا توفيق من الله ، وأن أخطأت فعزائى أجر المجتهد الذى أخطأ .

الباحث

الرياض فى ١٨ شوال ١٤٠٨ هـ/٢ حزيران ــ يونيه ١٩٨٨ م

الدراسات السابقة :

طرق الباحثون المحدثون ، المستشرقون منهم على وجه الخصوص من ذوى الاهتمام بالدراسات المغولية ، هذه القوانين ، التى تنسب إلى الخان المغولى هذا ، بشكل أو بآخر ، فمنهم من ذكرها بصورة عابرة ، أدرج ذكرها فى معرض كلامه عن تاريخ المغول عامة ، أو تاريخ جنكيز خان خاصة حسبما يتطلبه بحثه ووجهته التى انتحاها[1] . ومنهم من أخذها من زاوية أكثر تفصيلاً وخاصة من خلال تأثيرها على مجتمع دولة أخرى ، مثل « بولياك وايالون » وتأثيرها على التنظيم العام لدولة المماليك ، وهذا ما سيرد معنا كله . كما أن من المستشرقين من تناول هذا الموضوع بالدراسة والتحليل ، وأوضح ظروفها ، وملابساتها ، وقسم فقراتها المختلفة إلى اختصاصاتها ، من هذه الفئة « جورج فرنادسكى » و « ريازانوفسكى » .

لعل الذى يهمنا ، فى هذه الدراسة ، هو ما طرقه أصحاب الفئة الأخيرة . لأننا لو رجعنا إلى « أ . ن . بولياك » لوجدنا أن ما كتبه عبارة عن بعض القواعد التى عمل بها سلاطين المماليك فى مصر ، وأن هاتيك القوانين مستمدة من « الياسا المغولية » ، حيث يشير إلى أنها كانت هى الأساس الذى بنى المماليك بعض أنظمتهم عليها ، وأتخذ المقريزى « الخطط » مصدراً أساسياً له . ومن المعروف أن المقريزى كان ينقل من مصنف سابق له ، وهو ابن فضل الله العمرى ، صاحب « مسالك الأبصار » ، ولكنه كما يبدو لى لم يشر إليه كمصدر له . وهذا ما سبقنى الاشارة إليه « ايالون » فى دراسته نظام المماليك فى مصر وأنها استمدت من « الياسا » ، وقد عمل مقارنة بين ما أورده

---

(1) Walker "Jenghis Khan"; B. Spuler "History of the Mongol", R. Fox, "Genghis Khan" J. Dupuy "The Military life of Genghis ", B. Vlad imirtsov, "The life of Chingis Khan" and others

المقريزى والعمرى[1] . إلا أن دراسته ، وكما ظهر لى ، قد جاء مضمونها يختلف عن العنوان الذى جاءت دراساته تحتها . فقد جاء فى فقره (ا) مناقشات حول الروايات المتناقلة الواردة عند الجوينى والعمرى والمقريزى ، وكل واحد ينقل عمن سبقه ، وخرج بنتيجة هى أن الجوينى هو مصدر العمرى ، والأخير مصدر المقريزى . أما مقالته الثانية (ب) فهى تتعلق ببعض فقرات الياسا ، وما دار حول تنفيذ ماورد فيها من عقوبات ، وما يتعلق باتهامات كل فرد ، من أفراد الأسرة المنتمية إلى « جنكيز خان » للغير من المنافسين له فى السلطة ، بأنه اخترق أنظمة « الياسا » وقوانينها واضحت مسألة اتهام هذا الأمير أو ذاك باختراق « الياسا » وسيلة للنيل من الأعداء ، والاطاحة بهم ، ولينفذ فيه عقاب القتل[2] .

إضافة إلى الباحثين المذكورين هناك باحثون آخرون طرقوا هذا الموضوع بشكل أو بآخر . وأهم من بحث فيها ، فى نظرى ، رغم العديد من المآخذ عليهم ، حسب معرفتى البسيطة « جورج فرنادسكى »[3] و « فالنتن ريازانوفسكى »[4] . لعل أهم مميزات دراسة الأول ، كما ذكرنا آنفا ، أنه قسم فقرات « الياسا » إلى أقسام كل فقرة أو جزء حسب اختصاصه ، مستنبطاً الكثير منها من أفعال المغول ، وليس كنص بعينه كان قد ورد محدداً هنا أو هناك . فمن تلك الفقرات ، أو الأجزاء ما وضعه تحت : القانون الدولى ، أو القانون العام ، أو القانون الجنائى .. الخ . كما أدرج هذا المُصنِّف أموراً فعلية قام بها المغول كشىء قانونى ، لم يرد ذكره كفقرات جاءت فى « الياسا » أو

(١) D. Ayalon. "The Great yasa of Ghingiz Khan" Studia Islamica 1971. Vol. 33. PP : 97-140 and Vol. 34. PP 151-180. A & B.

وخاصة صفحات ١٠٦ وبعدها فى قسم (ا)

(٢) المرجع السابق . ص ١٠١

(٣) "The Scope & Contents of Chingis-Khan's Yasa" Harvard Journal of Asiatic Studies. 1938. 3/337 360.

(٤) "Fundamental Principles of Mongol Law" Indiana. 1965

كبند من بنودها ، بل استنتاج شخصي ، كقوله ، في الفقرة المخصصة للقانون الدولي ، بأن قتل الرسل محرم ، ثم استشهد بفعل « جنكيز خان » عندما غزا أراضي السلطان محمد خوارزم شاه ، انتقاماً لمقتل الرسل ، وتنفيذاً لذلك القانون ، حسب ما ذهب إليه المصنف[1] . ولقد جانبه الصواب ، كما يبدو لي ، في هذه النقطة ، والتي لا تخص الموضوع الذي نحن بصدده ، ولحسن حظنا فقد سبق لنا مناقشة هذه المسألة في بحث سابق لنا[2] .

أما الثاني ، « ريازانوفسكي » فقد أستعرض رواية مفادها : أن « جنكيز خان » أصدر قوانينه بعد أن أخضع ملوك المغول ، والتبت ، والصين ، ثم ظهر من تلك الرواية اشارة صريحة تقول بأن التأثير الصيني كان شديداً على هاتيك القوانين التي أصدرها ذلك الخان . ومع ذلك يذكر هذا المصنف بصريح العبارة ، وهو محق تماماً ، بأن المعلومات الدقيقة حول « الياسا » جاءت في كتابات المسلمين ، عرباً أو فرساً . ثم يورد مصنفات هؤلاء بدءً بالجويني ، ثم رشيد الدين ، ثم المقريزي ، ولكنه فات عليه أمر هام ، وهو أنه لم يشر إلى أن الأخير نقل عن العمري نقلاً غير أمين ، وهذا ما أشار إليه الأستاذ « ايالون » ، آنف الذكر ، ثم خرج بتحديد لتاريخ اصدار تلك القوانين ، وهي ما بين سنوات ٦٠٣ ــ ٦١٥ هـ/١٢٠٦ ــ ١٣١٨م . قام هذا المستشرق فقسم « الياسا » إلى خمس مجموعات ، هي قوانين تتعلق بالحقوق المدنية ، وأخرى ضوابط عسكرية ، وثالثة جنائية ، ورابعة قوانين خاصة ، وخامسة قوانين تتعلق بالحقوق المطلقة للخان . وعلى هذا الأساس سار في دراسته[3] .

هذا تقريباً استعراض سريع ومبسط ، وفي أشد اختصار لنا ، حول ما يتعلق ببعض الدراسات التي قام بها باحثون كان لهم شرف السبق في هذا

(١) G. Vernadsky, "The Scope", 346.

(٢) « أوضاع الدول الاسلامية ... » ٢١٥ ــ ٢٧١ .

(٣) Riasanovsky, "Fundumental..." 25 FF.

المجال ، مهما كانت دراساتهم ، لذلك ، رأيت لزاماً علي ، ومن باب الإعتراف بهذا الشرف أن أنوه عن بعضهم مما وقع تحت يدي من أعمالهم ، وما تسنى لي الاطلاع عليه ، حسب باعي القصير جداً في هذه الدراسة . ولكن أين مصادر معلومات أولئك ؟ وما هي ؟ وماذا قالت ؟ هذا ما سنقول شيئاً عنه فيما يلي ، ومن ثم سنجعلها مصدر مادتنا الأصلية ، بل الأولى .

بعد ذلك الاستعراض السريع إلى ما ورد في هذا الموضوع من دراسات حديثة نعود الآن إلى استعراض مماثل لما أوردته مصادر مادتنا الأولية عن حقيقة « الياسا » . وسوف نبدأ من الشرق ، من المصادر الصينية ، حيث أعتمدت على ما أورده « ريازانوفسكي » في مصنفه الوارد في الحاشية الأخيرة . لذلك فإن ما يتعلق بما جاء في المصادر المذكورة ، حول قوانين « جنكيز خان » وما نسب إليه من أقوال ، أو حكم ما ، قد أشار إلى هذه كلها مصنفنا هذا ، وطرق بعض الآراء التي جاءت في هذا الشأن . فمن هذه الآراء ما قاله المتخصص في الدراسات الصينية الأستاذ الدكتور « بُبُف Popov » ، والباحث في القوانين التشريعية لدولة المغول في الصين « يوان — تشه Yuan-Cheh » ، حيث أنه نفى بان تكون « الياسا » قانوناً تشريعياً . وقد دعم رأيه في هذا الشأن ، بأنه لو كان هناك شيء من هذا القبيل لوردت ضمن القوانين التشريعية التي أصدرتها أسرة « جنكيز خان » المغولية ، التي حكمت في الصين ، التي يظهر لنا أنها أعلنت عام ٧٣٠ هـ/١٣٣٠ م . ويشير هذا الباحث أن ما عرف بـ « ياسا جنكيز خان » ماهي إلا أوامر توجيهية أصدرها ذلك الخان ، حفظت في الصدور ، ونقلت من شخص إلى آخر ، مضامينه ليس إلا ، ولم توجد في شكل مدون ، وفي هذا الاطار وصلت إلى المؤرخين العرب ، ولكن بشكل مشوه جداً[1] . وقد فند « ريازانوفسكي » هذه الأقوال ، ويبدو أنه محق في ذلك ، لأن هناك حقائق كثيرة تثبت أن « جنكيز خان » أصدر قوانينه وتشريعاته تلك ، ودونها ؛ كل ذلك ينافي ما ذهب إليه « بُبُف Popov » .

(١) Ibid, 25 - 26.

وهذه الحقائق أوردها مؤرخونا المسلمون المعاصرون ، الذين ذكرناهم سابقاً ، وأثبتوها فى مصنفاتهم . هذا ، بالاضافة إلى مؤرخين آخرين « صينيون ، وأرمنيون ، وروسيون ، بل ومغوليون » كما سبقنى بالاشارة إليها الأستاذ « ريازانوفسكى » ، اضافة إلى أن المصادر الروسية قد أطلع هو عليها ، كل هذه لم أستطع الحصول عليها لأسباب كثيرة ، كما أن له ميزة أخرى عنى ، فى هذه الدراسات ، أنه أعطانا وجهة نظر المصادر الصينية وما قالته مصادر المغول مترجمة ، فى هذا المجال .

تشير المصادر الصينية والمغولية القديمة إلى أن « يوان تناى — تروا/وهو جنكيز خان » أصدر قوانين فى أوائل فترة حكمه . من هذه القوانين ما يتعلق بعقوبات تنزل بمرتكبى الجرائم ، كالقتل ، أو السجن لمدد تختلف باختلاف الجرم ، أو الجلد بعصى الخيزران على أخمص الأقدام ، وغيرها من الجرائم ، حسب ما تقتضيه كل حالة . كما أن الدراسات الصينية الحديثة تثبت وجود هاتيك القوانين التشريعية ، التى تنسب إلى « جنكيز خان »[1] .

مما أورده « ريازانوفسكى » ، معتمداً على ما جاء فى المصادر الصينية ، يفهم ضمناً بأن الصينيين هم الذين صنفوا « الياسا » حسب طلب « جنكيز خان » ، وبذلك جاء التأثير الصينى شديد الوضوح على القوانين المذكورة . تورد احدى الروايات المغولية ، فى هذا الخصوص ، بأنه عندما أصبح « جنكيز خان » يحكم مملكة مترامية الأطراف ، عظيمة الاتساع شملت أغلب أراضى الصين ، والتبت ، وجميع أراضى المغول ، رأى بأن قوانين الصينيين وتنظيماتهم تتميز بالقوة ، والدقة ، وأنها لا تتغير ، رغم تغير الزمان ، والمكان . لذلك نجده يدعو واحداً من معلمى الثقافات الصينية العظام ، ومعه ثمانية عشر من تلاميذه النابهين (لم يذكر اسم ذلك المعلم ولا أحداً من تلامذته الثمانية عشر) من بلاد الصين ، وطلب منهم بان يدونوا قوانين « يُسُّون — Yasson » بحيث تسهم فى تأمين السلام لمواطنيه ، وتجعل السعادة ، والرفاهية

---

(1) Ibid. 28 29.

يرفرف على شعبه ، وأن تتضمن تلك القوانين « خولى ـــ يسنو بيتشيك Khuli-Yessonu-Bichik » على وجه الخصوص ، أموراً تكفل حماية حكمه . عندما صنفت تلك القوانين ، وعرضت على « جنكيز خان » أقرها ، بعد أن وجدها تتفق مع أفكاره ، وما يدور بخاطره ، لذلك ، فقد امتدح مصنفيها ، وكافأهم ، واسبغ عليهم القاباً . ورفع مراتبهم[1] . كما أن هناك رواية أخرى ، تذكر بأنه فى السنة السادسة من حكم « تاى ـــ تزو/يعنى جينكيزخان » كان المغول فى حالة حرب مع الشعب الصينى ، فهزموهم وأبادوا قواتهم نهائياً[2] . وهنا أشار قائد الجيوش الصينية (اسمه كو ـــ باو يوى Go-Bao-Yui » بعد أن إستسلم لجنكيز خان) عليه بان يشرع قانوناً ولوائح جديدة حول تنظيم الدولة الحديثة . فاقتنع « تاى ـــ تزو/جنكيز خان » . ولذلك شرع قوانين تتعلق بعقوبات القتل ، وأخرى بعقوبة الجلد ، حسب طبيعة الجريمة المرتكبة ، أو المخالفة الاجتماعية . بناءً على ذلك ، فقد أضحى هذا القانون بداية التشريع لهذه الأسرة المغولية الحاكمة[3] .

أما ماجاء فى مصادرنا الإسلامية « عربية وفارسية » فيما يتعلق بـ « ياسا جنكيز خان » فقد كانت أكثر دقة ، وسعة ، مما أوردته المصادر الأخرى . وقد قال بهذا ، كما سبق ذكر ذلك ، « ريازانوفسكى » بان المسلمين (وهو يعنى العرب والفرس) هم أصحاب المعلومات الدقيقة حول « الياسا » . وهذا أمر متيسر لنا ، بحمد الله ، اضافة إلى هذه الحقيقة فانه من المعلوم جيداً بأن السفراء والرحالة الأوربيين ، ممن زار بلاط المغول وشاهدوهم ، وعاشوا معهم فترة من الزمن ، هم أيضا قد دونوا معلومات غاية فى الدقة ، وهى معلومات أناس قد أطلعوا إطلاعاً مباشراً على الكثير ، بل أغلب ما دونه من معلومات فيما نحن بصدده .

---

(١) Riasanovsky, "Fundamental..." P:: 26.

(٢) فيما يتعلق بالغزو المغول للصين أنظر : « سقوط الدولة العباسية » ٧٨ ، ٣٥١

(٣) Riasanovsky, "Fundamental." 29 & F.N. 15

من المعلوم جيداً أن مؤرخنا علاء الدين عطا ملك الجويني ، حسب معرفتي القليلة ، يتصدر المصنفين المسلمين ، من خلال مصنفه الكبير « جهانكشاى »[1] . بدأ كلامه عن « قوانين جنكيز خان » تحت عنوان : « ذكر القواعد التي وضعها جنكيز خان والياسا التي أصدرها بعد تقلده السلطة » ، وبعد مقدمة ذكر فيها مقارنة بين « جنكيز خان » مع غيره من ملوك العالم ، بما فيهم فراعنة مصر ، وقياصرة الروم ، وأكاسرة الفرس ، وغيرهم ، ثم قدم كلامه عن « قواعده ، والياسا » التي وضعها ذلك الخان حيث ذكر بأنه « ... ، وضع قاعدة لكل مناسبة ، وتنظيماً لكل ظرف ، بينما ثبت في الوقت نفسه لكل جريمة عقاباً .. كما أمر بأن تدون هذه الياسا والقوانين في سجلات ، وتسمى هذه السجلات كتاب الياسا الكبير ، وأن تحفظ في خزائن الامراء الكبار »[2] . كما استطرد الجويني ، في كلامه عن هذه القواعد ، قائلاً ، بأن هذه السجلات القانونية تستحضر للمراجعة ، حيث يتم العمل بموجبها وطبقاً لما ورد فيها ، كلما أعتلى خان جديد على العرش المغولي ، أو كلما اجتمع حشد هائل من الجند لتجييشهم ، في حملة عسكرية يزمع القيام بها ، أو كلما اجتمع الأمراء فيما بينهم للتشاور فيما يتعلق بشؤون الدولة وادارتها[3] . أما مدى تطابق هذه القوانين مع الشريعة الاسلامية ، فيقول : « ... ، يوجد هناك العديد من هذه النظم مطابقة مع الشريعة .. ، وبعضها مخالف لها ... »[4] . ثم أخذ يشرح جزءً من هاتيك القواعد كنظام الصيد ، وتنظيم الجيش ، وحرية التجارة ، وسرعة حركتها ، وتسهيل طرقها ، وبعض مسائل الميراث[5] .

(١) الجويني ، علاء الدين عطا ملك : « تاريخ جهانكشاى » ، تحقيق الأستاذ : ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزويني ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ هـ/١٩١١ م ، ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، ١٣٥٥ هـ/ ١٩٣٧ م ، ١٩/١ ، ٢٥ ، ترجم إلى الانجليزية على يدى الأستاذ الدكتور/ج . أ . بويل ، تحت عنوان : « تاريخ فاتح العالم » ، مطبعة جامعة مانشستر ، ١٩٥٨ م ، ٤٣/١ ـــ ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ، ١٦/١ ـــ ١٨ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٣/١ ـــ ٣٥

(٣) نفس المصدر ، ١٧/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٥/١

(٤) نفس المصدر ، ١٨/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٥/١ .

(٥) نفس المصدر ، ١٩/١ ـــ ٣٥ ، الترجمة الانجليزية ٣٦/١ ـــ ٣٤ .

أما ما أورده رشيد الدين فلا يخرج عن كونه أمثالاً شائعة ، ونصائح عامة ، وأموراً تتعلق بتجاربه الشخصية[1] .

خلف هذين المؤرخين المسلمين مصنفون آخرون ، جاءوا من بعدهما ، فنقلوا عنهما ، فوضع كل واحد هذه القاعدة أو ذاك القول بطريقته الخاصة ، ودونت أغلبها تحت اسم « ياسا جنكيز خان » أو « عادات القبائل المغولية وياسا جنكيز خان »[2] .

من المصنفين الآخرين المعاصرين ، من غير المسلمين ، العلامة ابن العبرى ، وهو المعروف أيضا بـ « بارهيروس كَريكَوريوس الملطى ، حيث ضمن كتابه ، الذى ألفه باللغة السريانية فى التاريخ العام ، بعضاً من هاتيك القواعد والأنظمة ، التى تنسب إلى « جنكيز خان » تحت عنوان « ياسا جنكيز خان » . وقد أورد هذا المصنف تسعاً منها ، تتعلق بالناحية العسكرية ، والارث ، والنظرة المغولية إلى الأديان ، والعلاقة بين الحاكم والمحكومين[3] .

إضافة إلى ابن العبرى ، فهناك مؤرخان ارمنيان آخران ، صنفا بالعربانية هما « فارتانك ومهاكيا — Vartang and Mahakia » ، حيث ذكرا بأن « جنكيز خان » أصدر قوانين تشريعية[4] .

أما مصنف كتاب « تاريخ نفكَرد » ، فقد أورد فى مؤلفه أمراً ، وهو ما يتعلق بعلاقة المغول بالنار والأوثان ، وأدعى بأنهم يجبرون الناس على السجود للشمس ، كما يرغمون كل واحد يقابل خانهم على المرور بين نارين ، ويشير

(١) رشيد الدين ، فضل الله ، جامع التواريخ ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش ، ١/٤٣٣ — ٤٣٤ .

(٢) العمرى ، ابن فضل الله شهاب الدين ، مسالك الأبصار ، مخطوط باصوفيا السليمانية ٣٤٣٩ ، حـ ٧٤/١ . المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، دار صادر ، بيروت ، حـ ٣٣٠/٣ — ٣٣١ . مجهول المؤلف ، « شجرة الأتراك » ، الترجمة الانجليزية ٩٠ — ٩٦ .

(٣) Bar Hebraeus, "The Chronography" translated from the Syriac by : E. A. Wallis, Oxford University Press, London, 1932, 354-355.

(٤) عن هذين المؤرخين أنظر : Riasanovsky, "Fundamental..." P : 28.

هذا المصنف ، حسب ما يفهم من روايته على أن هذا الأمر يتعلق بالمسائل الدينية[1] . وسنجد أن ما أورده هذا المصنف ليس كذلك ، وهذا ما سيرد معنا أثناء نقاش ما نحن بصدده ، « ياسا جنكيز خان » .

هذه لمحة خاطفة ، وجولة سريعة مختصرة ، عن أهم المصنفات ، التي تطرق أصحابها ، معاصرون وحديثون ، لما نحن بصدده لـ « ياسا جنكيز خان » لمن أراد أن يرجع إليها للاستزادة في هذا الموضوع ، أو البحث فيه . أما ما يتعلق بفقرات « الياسا » . فانني سأقوم بايراد الفقرات والبنود المنسوبة إليها ، من خلال مصادر مادتنا التاريخية ومراجعتها . إلا أن « فرناوسكي » قد خلط في هذا الموضوع بعض الشيء ، كما يبدو لنا ، إذ دمج جزءً من أقاويل وحكم « جنكيز خان » المأثورة عنه ، والواردة عند رشيد الدين ، في مصنفه « جامع التواريخ » ضمن « الياسا » . وهذا ما سيتضح معنا أثناء دراستنا . ومع ذلك ، فقد وجدت أن الطريقة التي إتبعها « فرناوسكي » طريقة جيدة ، حيث قسمها إلى مجموعات ، كل فئة حسب اختصاصات بنودها ، وفقراتها حسب قانون عصرنا الحاضر ، ومفهومه . لذلك رأيت أن أقسمها أيضاً إلى فئاتها المختلفة ، تقسيماً ليس بعيداً عما ذهب إليه « الأستاذ فرناوسكي » ، حسب رؤيتي المتواضعة لها ، اضافة إلى أنني قد أختلف عنه ، كثيراً ، وذلك بمناقشة كل فقرة ، حسب الحاجة ، وعما إذا كانت من صميم عادات المغول وتقاليدهم السابقة ، التي تعارف عليها القوم ، قبل ظهور « جنكيز خان » ، التي تنسب إليه « الياسا » على أنها من تأليفه ، ومبتكرات عقليته .

« الياسا وسلطة الخان المطلقة » :

ما أن انتصف العقد الأول ، من القرن السابع الهجرى/١٣ للميلاد ، حتى أصبح « تيموجين » يتربع على رأس الهرم بين مختلف العشائر المغولية وكافة قبائلهم . توحدت ، لتكون قوة واحدة ، بفضل مجهودات هذا الرجل ،

(1) C.R. Beazley, "The Chronicle of Novgorod" translated from Russian by : R. Michell and N. Fobers, London, Camden Society, Vol. 25, 1914, P. 81

وأعماله الجبارة . هذا نجده ، بعد توحيد قبائلها المتنافرة ، يدعو إلى اجتماع عام ، وهو ما عرف فى الأوساط التاريخية المغولية ودراساتها بـ « القوريلتاى »، ليحضره جميع الأمراء ، وكافة القادة العسكريين ، وكل أفراد العلية من القوم ، ورؤساء العشائر والأحلاف القبائلية ، وذلك للتشاور فيما بينهم فى أمور شؤونهم أجمعين ، وبما يخدم الصالح العام للأمة المغولية . كان ذلك الرجل يريد أن ينتهى ذاك الاجتماع بقرارات تدعم سلطانه ، ولا تحد من نفوذه على مر الزمن ، وتعاقب السنين . وقد نجح ، فيما كان يهدف إلى تحقيقه من ذلك الاجتماع ، نجاحاً ربما لم يكن يتوقعه هو شخصياً ، فقد خرج منه بعد أن نُصِّب حاكماً مطلقاً ، ليس على المغول ومن يمثلهم فى اجتماعهم ذاك فحسب ، بل أضحى هو الشخص الوحيد الذى اعترف له بالحكم على العالم بأسره ، والخروج بلقب يناسب هذا النفوذ العالمى ، والسلطان الشامل ، على كافة أرجاء الأرض ، طبقاً لما أوصى به « تنكرى » ، حسب زعمهم ، إلى ذلك الكاهن المغولى[1] .

لهذا السبب ، خرجوا من ذلك الاجتماع العمومى بان أعطوا « تيموجين خان » اللقب الذى أصبح معروفاً به فى الأوساط العلمية وهو « جنكيز خان » أى الخان العالمى ، كما سبق ذكر ذلك فى بحث سابق لنا[2] . أن هذا هو ما كان يسعى إليه « جنكيز خان » من دعوته إلى ذلك الاجتماع العمومى ، ليحصل على موافقة الجميع على البيعة له ، إن جاز لنا استخدام هذا التعبير ، والتمكين له ، ولبنيه من بعده ، بالسلطة المطلقة دون منازع ، وذلك بتشريع قرارات معينة ، تخدم الخان المتربع على العرش ، وتكفل وحدة الدولة ، التى يحتل قمة هرمها ، وعدم انحلالها . لعل مما أصدره فى ذلك الاجتماع ، حول هذا الموضوع ما يلى :

---

(١) كلمة « تنكرى » تركية ، تعنى لفظ الجلالة « الله » . أنظر الياب الدينية تحت .

(٢) « سقوط الدولة العباسية » ، ٧٦ .

أولا : حصر اللقب للخان وحده :

بناء على ما يحمله لقبه « جنكيز » من سلطات ليس لها حدود ، فقد أراد ، على ما يظهر لنا ، أن يورد نصا فى تشريعاته وقوانينه « الياسا » يحرم على الناس التلقب بأى لقب ، مهما كان ، وأن لا يحمل المرء مع اسمه أى لقب ، بل يكون اسمه مجرداً ، وأن يقتصر فى حمل اللقب على الرجل الذى يعتلى عرش الامبراطورية ، وأن لا يحمل هو أيضا سوى لقب واحد فقط ، وجعل ذلك أمرا قانونيا ، بناءً على ما يمكننا استنتاجه مما جاء عند الجوينى فى هذا الشأن ، فحواه على النحو التالى :

ـــ يلقب المرء الذى يتوج على العرش الخانى بلقب واحد فقط ، يضاف إلى اسمه الأول ، وهذا اللقب هو « الخان » أو « القاآن » ، فلا شىء غير هذا يضاف إلى اسمه فى اية كتابة رسمية وغير رسمية ، أو عند التخاطب معه . أما البقية من ابناء الخان الآخرين وأخوانه فيجب الا يسموا ، سواء فى حضورهم أو فى غيابهم ، بغير الأسماء التى مُنحها كلُ فرد حين ولادته . وهذا ينطبق أيضاً على بقية القادة والنبلاء ، وعليه القوم ، فى المجتمع المغولى ، فلا يكتبون سوى الاسم مجرداً من كل الألقاب الزائفة ، والرنانة ، فلا فرق بين سلطان ورجل عادى ، فكل واحد يسمى ويدعى باسمه[1] . وقد ورد عند المصنف الأرمنى « بارهيروس » فى هذا المعنى ما نصه : « يجب الا يغدق المغول على ملوكهم وعليه القوم منهم القاباً رنانة كالامم الأخرى ، وخاصة المسلمين ، فلا يحق للانسان الذى يعتلى العرش المغولى أن يضيف إلى اسمه سوى لقب واحد فقط هو : الخان أو القاآن . ويجب على أخوته وأقربائه بالا يدعوه سوى باسمه الذى منح له عند ولادته مجردا من اللقب »[2] .

---

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١ ، ٢٩ ، ترجمة الانجليزية ، ٣٢ ـــ ٣٣

(٢) بارهيروس « ابن العبرى » ، « كرونوغرافى » ترجمة الانجليزية ، ص ٣٥٤

أشاد الجوينى بهذا القرار الوارد فى « ياسا جنكيز خان » ، وقال بأنه من العادات والتقاليد الحميدة ، التى تستحق المدح والاطراء عند جنكيز خان ، والمغول من بعده ، هو فعله ذاك الذى قفل فيه باب التلقب بالألقاب الطنانة مع أنها أمور جوفاء ، لا تسمن ولا تغنى من جوع[1] .

لعله قد فات على الجوينى ، وغيره ممن نهج هذا الرأى — كما يبدو لى ، أن لقب « قاآن » لم يكن من الأمور المعروفة وقت « جنكيز خان » ، لأن هذا اللقب يعنى « خان الخانات » ، ومن المعروف أن هذا اللقب لم يأت إلا بعد وفاته ، حيث تلقب به ابنه وخليفته « اكتاى » ، لكى يفرق بينه وبين الأمراء الآخرين من أسرته الذين تلقب كل واحد منهم بلقب « خان » ، بحكم مركزه الأميرى كخان على ما تحت يده من مملكة واسعة ، ينوب بشكل نظرى عن الخان الكبير ، أو « القاآن » . لذلك فإنه يظهر أن هذا تناقض جاء عند مصنفنا الكبير ، الجوينى ، وغيره فى هذا الشأن ، خاصة لقب « خان » الذى أصبح يحمله كل أمير ينتسب إلى « جنكيز خان » . لذلك فانه يبدو لى ، إذا كان فعلاً قد ورد شىء من هذا فى « الياسا » ، فقد خالفها كل الأمراء المنتسبين إلى « جنكيز خان » ، الذى ربما كان هدفه من وضع هذا القرار أن يحفظ للشخص ، الجالس على العرش المغولى ، احترامه وتقديره المتمثلين فى لقبه الامبراطورى ، ولئلا يكون المجال مفتوحاً أمام الآخرين ممن يصبح لهم مكانة اجتماعية مرموقة ، فيترك الحبل على الغارب ، فيتلقب أى فرد بما يشاء من الألقاب ، قد يكون فى ذلك مساساً بلقب الخان نفسه[2] .

ثانيا : الجمعية العمومية الشعبية :

أن الغرض الأساسى من دعوة الناس إلى هذا الاجتماع ، ما هو إلا قرار آخر ، يهدف إلى ما كان يهدف إليه سابقه ، المتعلق باللقب ، واقتصاره على

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١٩/١ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٦/١ — ٣٧ ، أنظر كذلك « شجرة الأتراك » ، لمجهول المؤلف . الترجمة الانجليزية قام بها الكولونيل ميلز ، لندن ١٨٣٨ م ، ص ٩٣
Unknown, "Shajarat ul Atrak", ED. & Tran., by ed Miles, London, 1838, P. 93.

(٢) أنظر ما قاله فى هذا الخصوص G. Vernadsky, "The Scope...", 346.

الخان نفسه ، حيث يخدم سلطات الحاكم الأول في الدولة ، ويجعلها وحدة واحدة لا تتجزأ ، إذ كان « جنكيز خان » كان يخشى أن تتفكك امبراطوريته إلى دول كثيرة ، فتنتهي سلطة المغول . لذلك ، وعلى ما يبدو لنا ، أصدر قرارا ينص على وجوب ذلك التجمع ، وأن يحضره الصغير والكبير من ذوي المسؤولية في دولة المغول ، وعقاب من يتخلف الموت ، إلا بعذر مقبول وقاهر ، كما سنرى .

لم تذكر مصادر مادتنا ، التي أمكننا الرجوع إليها ، بصريح العبارة على أن « القوريلتاى » ، وهو الاجتماع العام للمغول ، كان فقرة واحدة من فقرات « ياسا جنكيز خان » أو فقراتها . إلا أن « جون الكربيني » أورد رواية تدل على أن هذا الاجتماع قد وردت له فعلاً اشارة على أنه من قرارات « الياسا » أو فقراتها . يقول هذا المصنف بأن « جنكيز خان » عمل عدة قوانين و« ... » سنعطي اثنين منها فقط . واحد ينص على أنه إذا ما تجرأ انسان ، مدفوع بكبريائه المتبجح ، وأراد أن يكون امبراطورا بدافع من رأيه الشخصي وسلطته الوحيدة وصلاحياته الفردية ، وبدون انتخاب يتم على أيدي الأمراء الباقين ، فانه يتحتم قتله ، وبدون رحمة به ، أو شفقة عليه ... »[1] .

بناءً على ذلك ، فإنه يمكننا القول بأن هذا الاجتماع أصبح أمراً تقليدياً ، ورد له نص في « ياسا جنكيز خان » ، حيث يلتقي فيه كافة الأمراء من أسرة « جنكيز خان » ، يأتون إليه من كافة أرجاء الامبراطورية ومختلف أقاليمها ، كل كبير أسرة ، من أسر هذا الخان ، على رأس وفد بني أبيه ، وبذلك أضحى أمراً مسلما به ، أنه من يتخلف عن أي اجتماع من هذا النوع ، يدعو إليه الخان ، أو من ينوب عنه ، أو اتفق عليه ودعي إليه من قبل كبار أسرة ذلك الخان « جنكيز » فان عقوبة المتخلفين عن حضوره هي الموت قتلاً . اضافة إلى أن حضوره مفروض أيضاً على جميع القادة العسكريين ، ورؤساء العشائر ،

(١) Carpini, John. "History of the Mongols" Ed. By C. Dawson. London & New York. 1955. P. 28.

وكافة أمراء وولاة أقاليم الإمبراطورية ، وموظفيها ، ومن لم يحضر منهم فان عقابه هو الآخر « الموت بعد التعذيب حياً » . والسبب وراء ذلك ، هو أن تغيبه يؤخذ على أنه مخالفة مكشوفة لسلطان المغول ، ويعتبر تصرفاً يبطن العصيان ، وعدم الرضا والانسجام قلباً وقالباً مع السلطة المركزية فى مقرها ، فمن تخلف يقدم للمحاكمة العلنية ، تمهيداً لاعدامه . إذ لا يتم قتله إلا بعد محاكمته ، والتى يتم خلالها انزال ويلات العذاب الجسدى ، والتشويه الخلقى بالمتهم ، فالغاية من محاكمة المخالف هى التشهير به ، وجعله عبرة لغيره ، مع أن النتيجة معروفة فى النهاية ، وهى الاعدام .

لهذا ، فانه كان يتحتم على كل من يعنيه الأمر ، بحضور ذلك الاجتماع ، بأن يسارع إلى الحضور ، مهما بعدت الشقة ، أو صعبت المسالك ، أو سدت الطرقات بعوائق ، كنزول الثلج والامطار ، بل على كل امرء أن يكابد السفر ويصارع الأخطار ، ويركب الأهوال ، فى شكل متواصل السير ، ليله بنهاره ، حتى يصل إلى مكان الاجتماع . فإذا أقتنع بعذره ، وعلم اخلاصه وولاءه ، فانه يكرم ، ويثبت فى مركزه الادارى ، لأنه بذل غاية جهده لكى يحضر ذلك الاجتماع المدعى له والمتوجب حضوره .

إذاً ، يظهر لى بأنه يمكننى وضع صيغة لهذا القرار الخانى ، الذى تذكر بعض مصادرنا بأنه ورد فى « ياسا جنكيز خان » ، على النحو التالى : « يجب على جميع الأمراء فى الدولة ، ورجالها من ذوى السلطة ، وكبار القادة فى الجيش ، والاداريين أن يجتمعوا فى صعيد واحد ، وفى وقت معين لكى يختاروا من بين الأمراء من يرونه أهلاً لتتويجه خاناً على الامبراطورية . ومن يسعى لانتخاب نفسه ، استقلالاً بسلطانه ، وغروراً بمكانته ، وبدون انتخاب ورضى من بقية الأمراء ، فانه يقتل ، لأنه يريد أن يتولى الحكم بدون اختيار وموافقة المعنيين بالأمر . ومن تخلف ، ممن يتطلب حضوره ، فانه يقتل »[1] .

(١) لمعلومات تفصيلية ، ووصف حى لمثل هذا الاجتماع ، وكيف يتم اجتماع القوم واستدعاء بعضهم بعضا ، انظر : الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١٤١/١ وبعدها ، ١٣/٣ وبعدها ، الترجمة الانجليزية ١٧٨/١ وبعدها ، ٢٩٦ وبعدها ، ٣٤٨ ، ٥٥٠/٣ وبعدها حيث تم فى هذه الاجتماعات انتخاب وتتويج « اكتاى » و« كويوك » ومنكو « على التوالى

بناءً على هذا ، فالذى يظهر لنا ، هو أن « القوريلتاى » يعتبر السلطة العليا فى الامبراطورية المغولية ، وهى فى حد ذاتها دعم لسلطات الخان المغولى ، وتأكيد لنفوذه ، بشكل مفروض على القوم ، وبرضى واختيار منهم ، حيث أن الخان يستمد نفوذه المطلق وسلطانه الواسع على الشعوب التى خضعت تحت نفوذهم ، بل أن الخان المغولى كان يعتقد ، اعتقاداً راسخاً ، بأنه يجب أن يكون السلطان الأوحد على أمم الأرض بأسرها ، متى أعطى الموافقة ، من قبل الأعضاء المجتمعين فى ذلك المجلس العمومى ، ونصبوه « خاناً » ، أو « قاآنا » عليهم . وبما أن ذلك الاجتماع ، الذى انتخب فيه « تيموجين خان » « جنكيز خان » قد أعطاه الحكم المطلق ، إذ أصبح من الأمور المسلم بها ، ومن أوجب الواجبات ، إلا يتم اختيار أى فرد وتنصيبه على العرش المغولى ، إلا من خلال اجتماع عام مثل ذاك الذى عقده « تيموجين خان » ونصب فيه على عرشهم . فأمسى عقد مثل هذا الاجتماع أمراً قانونياً ، حيث قد نص عليه كفقرة فى « الياسا » على ما ظهر لنا ، على الأقل فى النصوص التى تسنى لنا الرجوع إليها . كذلك يعقد فى موطن المغول الأصلى ، بلد الاباء والأجداد ، وهى تلك التى ورثها « تولى خان بن جنكيز خان » وابناؤه من بعده ، كما أسلفنا القول فى بحث سابق[1] .

لعل من أهداف حتمية عقد هذا الاجتماع فى مكانه وزمانه المحددين فى « الياسا » أمور كثيرة ، قد يكون منها :

١ ـ أن عقده فى مكان معين ، وهو أرض المغول الأصلية ، وبحضور كافة الأمراء ، كل كبير أسرة على رأس قوم أبيه ، ومن تحت نفوذه ، يمنع أى أمير آخر أن تسول له نفسه بالاستقلال عن الدولة المركزية ، مهما كانت قوته ، أو سعة أرضه وأملاكه ، أو أن يقوم بتنصيب نفسه خاناً أكبر على المغول ، فينافس غيره من ذوى الحق فى تولى السلطة .

---

(١) « سقوط الدولة العباسية » ، ١٤١ وبعدها

ب ـــ أن تكون الدولة وحدة واحدة ، عليها رجل واحد ، وهو « الخان » فهو « قرا ـــ قروم » ، فلا يكون هناك أى مجال لتفككها ، وما قد يتمخض عنه ذلك من بداية لانهيار الامبراطورية وتحللها ، لاعتقادهم الراسخ ، بأنها عالمية النفوذ ، ولتكن أبدية الوجود ، لا تزول ولا تنقضى .

جـ ـــ تأكيد سلطة « الخان » أو « القآآن » المطلقة على كافة الأسر ، وعلى جميع الولاة ، والقادة العسكريين ، فهم يأتون لاعطائه البيعة ، ثم يتلقون منه الأوامر والنواهى ، تجاه ما يقوم به من أعمال ، كل فيما يخصه .

د ـــ تأكيد الالتزام بما جاء فى « الياسا » ، وذلك باستخراجها من حرزها ، التى هى محفوظة فيه ، واعادة قراءة ما ورد فيها من بنود ، واعلانه للناس ، كل ذلك لكى ، على حد تعبير الجوينى ، « ... ، يكيفون أعمالهم وينفذونها طبقاً لما جاء فيها »[1] .

أما مسألة ما ذهب إليه « فرنادسكى » من أنه من أغراض ذلك الاجتماع هو تأكيد سلطة القبيلة التى ينتمى إليها الخان نفسه ، خاصة ، وكافة القبائل المغولية فى مجموعها ، بل لتأكيد سلطة العنصر التركى على غيره من العناصر العرقية الأخرى ، وخاصة بعد أن ضمت الدولة المغولية تحت مظلة نفوذها أجناساً وأمماً ذات أعراق جنسية غير العنصر التركى ، فان هذا القول يبدو لى غير دقيق[2]

لعل السبب ، وكما يظهر لى ، هو أن المغول ، بدءً من « جنكيز خان » وحتى الانسان العادى ، يرى نفسه فوق جميع الطبقات البشرية ، وأن المغول لم يخلقوا إلا ليحكموا العالم ، بزعامة خانهم ، وأنهم صفوة مجتمعاتهم التى

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١٧/١ ـــ ١٨ ، الترجمة الانجليزية ، ٣٥/١

(٢) G. Vernadsky, "The Scope..." 347

تسكن المعمورة ، بل فوق ذلك كله ، أن للمغول الحق فى تجريد غيرهم من الناس من جميع ممتلكاتهم ، فليس لهم فيه حق ، بل أنه حق للمغول وحدهم ، وليس لغيرهم حق الاعتراض على أى مغولى يريد أن يسلبه ما عنده ، إذ يرون أن ذلك الانسان لم يكن من حقه أن يمتلكه أصلاً . لذلك فانه من هذا المنطلق كانت نظرة المغول ، إلى غيرهم ممن ينتمى إلى عرق خارج جنسهم العرق ، ووطنهم الأصلى[1] .

« ياسا الامبراطورية الدولية » :

بما أن « جنكيز خان » قد أخبر بأن الها السماء والأرض (حسب زعمهم ، وتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً) قد أتفقا فيما بينهما على أن يكون هو ومن يرث العرش المغولى ، من أبنائه وأحفاده ، الحاكم الأوحد على الأراضى . لذلك فلا بد أن يستمع إليه كل انسان على وجه البسيطة ، وأن يطيع أوامر الخان المغولى ، وأن يستسلم لهم طواعية ، وبدون أية مقاومة ، ومن لم يفعل ذلك فان مسألة القضاء عليه مسألة لا تحتمل أى تأويل ، فهو لا محالة هالك على أيديهم . والسبب وراء ذلك هو شدة اعتقادهم ، وعمق يقينهم بأن الاله الخالد فى السماء يؤيدهم . فى هذا الخصوص أورد مصنف كتاب « التاريخ السرى للمغول » ما نصه : « ... ، أن السماء والأرض قد اتفقتا فيما بينهما ، وقررتا أن تيموجين (وهو جنكيز خان) قد أختير ليكون الحاكم على الأرض ... »[2] . اضافة إلى ذلك ، فقد أورد « جون الكربينى » قولاً بأن المغول لديهم : « ... ، أوامر جنكيز خان بأن يخضعوا أمم الأرض لسلطانهم ... »[3] .

---

(١) لقد سبق لنا مناقشة ذلك فى الفصل الثالث من كتاب مخطوط تحت الطبع بعنوان « بيئة المغول وحياتهم الاجتماعية والدينية » أنظر كذلك : كتابنا : « أوضاع الدول الاسلامية فى المشرق الاسلامى » ، ٣١٨ — ٣٧١ وكذلك : Carpini, "The History..." Ed., Dawson, 15

(٢) Unknown, "The Secret History of the Mongols", Engl. tr., by : A. Waley, London. 1963 P. 244

(٣) J. Carpini, "History..." 38

ولقد كان « بارهبروس » ، فى معرض كلامه عن « ياسا جنكيز خان »، يعمل نفس الاعتقاد ، ويؤمن عمق الايمان بأن الله قد أيدهم بنصره ، لذلك ، فقد فتحوا الأقطار وهزموا الأعداء ، وسيفتحون أقطاراً أخر ، وسيهزمون جيوشاً بعد جيوش[1] . كما أورد هذا المصنف فى كتابه العربى ما نصه : « ... ، وفى أثناء هذا الأمر ظهر بين المغول أمير معتبر كان يسيح فى الصحارى والجبال فى وسط الشتاء عرياناً حافياً ويغيب أياما ثم يأتى ويقول : « كلمنى الله (تعالى الله عما يقول) وقال لى أن الأرض بأسرها قد أعطيتها لتموجين وولده وسميته جنكيز خان ، فسماه جنكيز خان ثبت تنكرى وكان يرجع إلى قوله ولا يعدل عن رأيه ... »[2] .

ولقد سار على هذا المنوال أبناء وأحفاد « جنكيز خان » فى عقيدتهم الراسخة بأنهم مؤيدون ومنصورون من الاله الخالد خلف السماء الزرقاء . ولقد سبق أن ناقشنا هذا الموضوع فى بحث سابق حيث طرقنا الأسباب الحقيقية فى نظرنا ، وراء الغزو المغولى للعالم الاسلامى خاصة ، وبقية أراضى العالم التى وقعت تحت حوافر خيولهم[3] .

لذلك ، فلا غرابة أن نجد قاعدة معينة قد وردت فى « الياسا » توضح الاطار العام الذى يجب أن يسير المغول وخاناتهم على نهجه ، لاخضاع أمم الأرض . وكذلك أسلوب التعامل مع رؤسائهم كما يتضح هذا من الكيفية التى صيغت بها رسائل الخانات الموجهة إلى ملوك العالم وحكام الأقطار المختلفة ، ودعوتهم لاعلان الطاعة والاستسلام لهم ، وكذلك إلى كل من يتمرد على سلطانهم ، ويعلن الحرب عليهم ، لأن النتيجة ، وعاقبة أمرهم معروفة ، وهى ايمانهم بأنهم سيخضعونهم لسلطان المغول وجبروته . وأن أى انسان ، على وجه الأرض لم يخضع لنفوذهم ، يعتبر ، حسب اعتقادهم ، عاصياً لارادة الاله الخالد ، والأبدى الوجود . لهذا لابد من انزال العقاب الصارم بكل من يحيد عن طاعاتهم .

---

(١) "The Chronography" 355.

(٢) « تاريخ مختصر الدول » ، ص ٣٣٦ ــ ٣٣٧

(٣) « أوضاع الدول الاسلامية » ، ٣٦٤ ــ ٣٧١

من هذا المنطلق كان ينظر « جنكيز خان » ، وكل مغولى ، وبهذا التصور كانوا يسيرون فى تعاملهم مع غيرهم من الأمم الأخرى . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ « فرنادسكى » ، حيث قال (وهو عندى محق فيما ذهب إليه ، مستنداً على ماجاء عند الجوينى وابن العبرى المشار إليهما أعلاه ، لأن هذا منطق المغول) بأن أى انسان لم يستسلم للمغول ، أو خرج من تحت سلطانهم ، أو يحاول أن يثور على حكمهم ، يعتبر مخالفاً لما جاء فى « ياسا جنكيز خان » ومخالفاً لما جاء من عند الاله الخالد فى السماء ، حسب زعمهم ، وبما أوصى به إلى ذلك الكاهن المغولى . ورغم ما ذهب إليه هذا المستشرق ، إلا أنه يناقض نفسه بشكل لم يحس به[1] . اضافة إلى ما سبق فقد جاء « جون الكربينى » بالقول الفاصل ، حسب ما يبدو لى ، إذ يقول بأن « جنكيز خان » أصدر عدداً من القوانين والأسس المشرعة ، وهو هنا يقصد « الياسا » ، من هذه القوانين : « يجب عليهم (أى المغول) أن يخضعوا كل العالم تحت سلطانهم ، وألا يقبلوا التعايش فى سلام مع أية أمة ما لم يدن لهم شعبها أولاً بالولاء والطاعة ... »[2] . ومن ذلك يتضح لى بأن فقره من فقرات « الياسا » قد جاءت فى هذا الخصوص ، وتمشياً مع اعتقادهم الراسخ بأحقيتهم فى حكم العالم ، بموجب ارادة الهية ، يمكننا وضعها بالصيغة التقريبية التالية :

١ ــ على الشعب المغولى أن يخضع كافة أمم الأرض وشعوبها تحت سلطته ، وإلا يقبل التعايش السلمى مع أية أمة ، ما لم تخضع هذه الأمة أو تلك بالولاء وتعلن الطاعة والخضوع للخان المغولى .

لذلك فقد جاء نص الاطار العام لتحديد أسلوب التخاطب مع الأعداء والمتمردين على سلطانهم ، وكيفية طلبهم الدخول فى طاعتهم ، يمكننا صياغته ، حسب ما جاء فى مصادرنا ، على النحو التالى :

٢ ــ عندما يريد الخان المغولى ارسال خطابات إلى أية جهة من الأرض يدعو

(١) Vernadsky, "The Scope ..." 345.

(٢) J. Carpini, "The History. ..." 25.

الناس فيها للدخول فى طاعته ، فيجب ألا يستخدم الألفاظ النابية ، أو التهديدات العنيفة ، كما يفعله ملوك الطغيان فى العهود السالفة الذين يتهددون أعداءهم بقوة بطشتهم ، وبأحجام جيوشهم الهائلة ، وأسلحتهم ومعداتها الكبيرة ، وسعة أراضيهم المترامية ، بل على المغول أن يكونوا على عكس ذلك تماماً ، بحيث يكون أقصى تهديد يمكن تدوينه فى رسالة سياسية خارجية ما نصه : « ... ، فإذا أنت لم تستسلم ، أو تسلم نفسك ، فإننا لا نعلم ماذا يحدث لك من جراء ذلك ؟. ولكن الوحيد الذى يعلم ذلك كله هو الله القديم الأزل والأبدى الخلود »[1] .

أما مسألة حصانة الرسل ، والسفراء القادمين إلى المغول ، أو المراسلين منهم ، فانها مسألة لا تخرج عن الاطار العام ، عما سبق ذكره . ولا أعتقد أن مسألة مقتل سفراء المغول على يد السلطان محمد أو ملوك روسيا كان هو السبب لغزو « جنكيز خان » لأراضى الدولتين ، كما ذهب إلى ذلك القول الأستاذ « فرنادسكى »[2] . وقد سبق لنا أيضا مناقشة هذه المسألة فى بحثنا المنوه عنه أعلاه[3] .

إذا يمكننا أن نستنتج من ذلك كله أن المغول لم يكونوا يؤمنون بشىء اسمه « الدولة » لأن هذا يناقض ما جاء فى صميم معتقدهم الوجدانى ، وشعورهم تجاه أمم الأرض ، ودولها ، وشعوب الدنيا وحكوماتها ، فلا دولة عندهم على وجه الأرض إلا دولة المغول ، ولا حاكم عليها إلا « جنكيز خان » ، ومن يرثه من بنيه ، وأبناء بنيه من أهل بيته . لذلك فمسألة ان هذا قانون يمكن تدوينه تحت اسم القانون الدولى ، فيه نظر ، ولعل من قال بذلك ، نظر إليه من زاوية معينة ، وهى النظرة العصرية فى وقتنا الحاضر[4] .

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١٨/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٥ : ١ ـــ ٣٦ كذلك بارهيوس ، « ملوك العرب » الترجمة الانجليزية ، ٣٤٥ ؛ « شجرة الأتراك » ، ٩١ ـــ ٩٣

(٢) Vernadsky "The Scope.." 345 346.

(٣) « أوضاع الدول الاسلامية » ٣٦٤ ـــ ٣٧١

(٤) Vernadsky, "The Scop.." 344 345.

الياسا الجنائية :

وجد « جنكيز خان » أن الفوضى ، التى كانت ضاربة أطنابها فى مجتمعه ، الذى ظهر فيه وتربع على عرشه ، أكبر خطر يهدد دولته ، لذلك أراد أن يستفيد مما هو موجود من العادات والتقاليد المغولية ، ويدونها كتابة ، ويضيف إليها ما يناسب بيئته ومجتمعه ، بل وفوق ذلك كله امبراطوريته ، وخاصة ما يخدم الخان المتربع على العرش من أبنائه وأحفاده ، فمتى دونت هذه الأمور كتابة أصبحت أمراً مقدساً لدى المغول ، لأنهم حديثو عهد بالكتابة التى لم تدخل إلى مجتمعهم إلا أيام اعلان « الياسا » . لذلك نجد أن من يخرج عن قواعدها ، أو يحيد عن فقراتها ، أو ينهم بعدم الالتزام بها كدستور لحياته ، تنزل به عقوبة الموت ، لأنه ارتكب امرا مخالفا لما جاء فى ذلك الدستور « الياسا » ، فأصبحت عندهم بمثابة الكتب السماوية المقدسة عند أهلها ، وقد طرق هذه الناحية (انصاف التهم بمخالفة الياسا بالأعداء للنيل منهم) ياقوت ، كما سبق ذكر ذلك . لهذا نجد « جنكيز خان » قد ضمن ولاء مختلف القبائل المغولية لأسرته من خلال « الياسا » ، ومن خلال قواعدها استقرت الأوضاع الأمنية . بناءً على ذلك ، ساد السلام وعم النظام سائر أرجاء الدولة المترامية الأطراف ، وشمل كافة المجتمعات التى حوتها مظلة السلطة المغولية . إذ كان المرء يسافر اينما شاء ، وحيثما أراد ، ومتى رغب ، شرقاً أو غرباً ، شمالاً أو جنوباً ، قريباً أو بعيداً ، وهو مطمئن فى نفسه ، وماله وأهله ، لا يخشى أمراً .

فى الصفحات التالية سنتناول « الياسا الجنائية » ، وغيرها حسب ما عثرنا عليه منها ، معتمداً على مصادرها الأولية المعاصرة ، بشكل أساسى ، رغم أن مصنفى تلك المصادر لم يوردوا كل فقراتها ، على حد تعبير الجوينى ، وبعض مصنفينا من الشراء الأوربيين ممن كتب عن هذا الموضوع ، لئلا يطول بهم المقال ، وأن لدى المغول قوانين كثيرة جدا غير تلك التى أوردوها[1] .

---

(1) انظر على سبيل المثال : جوينى ، جهانكشاى ، ١ ، ٣٥ ، الترجمة الانجليزية ١ ، ٣٤

ولكننا سنورد ماعثرنا عليه عند أولئك المؤلفين، حسب نصه إن كان ورد منصوصاً عليه ، ثم نورد نصوصاً للتي لُمِّح إليها عندهم ، كاجتهاد شخص منا ، وسنشير إلى ذلك حسب ورود كل فقرة ، أو اشارة معنا .

لذلك فسنعمد إلى اتباع الطريقة الحديثة ، فنقسم هاتيك القوانين إلى فئاتها المختلفة ، حسب اجتهادنا المتواضع فنجعلها أقساماً : جنائية ، ومدنية ، وتجارية ، وادارية ، وعسكرية ، وآداب عامة اجتماعية .

قانون العقوبات الجنائية :

أورد لنا السفير الأوربي « ويليم الريركي » جملة من فقرات « الياسا » على ما يظهر لنا ، كانت سائدة بين المغول عند زيارته لهم ، أيام الامبراطور الرابع « منكو » حفيد « جنكيز خان » ، حيث بدأها بقوله : « ان ما يتعلق بالقوانين الجزائية أستطيع أن أقول لكم أنه عندما يتقاتل رجلان فلا يستطيع أحد أن يتدخل لصالح أي من الطرفين ، حتى أن الأب لا يستطيع مساعدة ابنه .. الخ[1] .

مما جاء عند هذا المصنف ، لعلنا نعتقد ، أنها كانت قوانين مدونة ، من جملة ما أورده « جنكيز خان » في « الياسا » . والذي يظهر لي هو أن هذه القوانين جاءت نتيجة لأمور كانت سائدة لم يكن ذلك الخان راضياً عنها ، فدونت كشيء الزامي ، وقانون يُحْتَرَمُ ، ليتحتم تنفيذ العقاب المناسب لمن يخالفه ، اضافة إلى أمور اجتماعية أخرى كان المجتمع المغولي قد تعارف عليها ، فجاءت ضمن « الياسا » . وسنشير إلى بعض الشواهد لكل فقرة ترد معنا ، فيما يتعلق بهذه القوانين الجزائية ، التي يمكننا صياغة كل بند منها كما يلي :

١ ـــ من يتدخل كطرف ثالث بين اثنين يتقاتلا ، ليساعد أحدهما على الآخر حتى الأب لا يحق له مساعدة ابنه ، ومن يفعل ذلك يقتل .

---

(١) Rubruck, Friar William, "The Journey of Rubruck to the Eastern Part of the World" in "The Mongol Mission" Ed. C. Dawson, London & New York, 1955, P. 104

٢ ــ يحق للرجل أن يتقدم إلى القضاء لمحاكمة خصمه ، في الحال وبدون تأخير ، وعندما تثبت دعواه ، فانه يذهب ويجلب خصمه إلى المحكمة كالأسير بين يديه .

لعل السبب في ايجاد هذين البندين هو ما كان قد جرى لـ « جوجي قسار » وهو أخو « جنكيز خان » على أيدي سبعة أبناء لشيخ كبير السن هو « منكليك » من الاضطهاد والتنكيل . وقد تزعم الأخوة السبعة « كلتشو » الذي كان بمثابة الكاهن « تب ــ تنكري » . فلم يستطع أحد أن يحد من نفوذهم ، وذلك لقوتهم ، الأمر الذي اضطر « جنكيز خان » أن يجمع قوة أرهبتهم ، فانتقم من ذلك الكاهن ، الذي أراد أن يكون فوق سلطة الخان ، كما سبق لنا مناقشة هذا الموضوع[1] .

٣ ــ لا تنفذ عقوبة جزائية على متهم ما لم يعترف بأنه ارتكب الجرم الذي اتهم به .

٤ ــ إذا أتهم مجموعة من الناس انساناً بتهمة ما ، فإن ذلك المرء المتهم يحاكم ويحقق معه ، ويعذب للتهمة بشهب النار حتى يعترف ، فتصدر العقوبة في حقه حسب جرمه .

(وعند المغول وسائل تعذيبية أخرى كالضرب المبرح وغيره ، وقد عُذِّب شِيبَانُ بنُ كويوك وأهلُ بيته ، عندما أتهموا بالتخطيط لقتل منكو قاآن ، بضربهم بشهب النار ، وأنواع التعذيب الأخرى ، حتى أعترفوا ، فنزلت بهم عقوبة الموت[2] .

٥ ــ من أقدم على قتل انسان فانه يقتل . (هذه الفقرة يبدو لنا أنها بين المغول أنفسهم ، لو رود نصوص تتعلق بالدية لغير المغول كما هو موضح في الفقرتين التاليتين) .

(١) في كتاب لنا مخطوط تحت الطبع بعنوان « بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية » الفصل الرابع ــ فقرة ٣ .

(٢) W. Rubruck, "The Journey ", 147 8.

٦ ـــ إذا قتل المسلم فان ديته أربعون باليشا[1] .

٧ ـــ إذا قتل الصيني فان ديته حمار .

٨ ـــ من ارتكب جريمة الزنا ، متزوجا أم غير متزوج ، مع امرأة ليست له ، زوجة أو سرية ، فانه يحاكم تمهيداً لاعدامه .

٩ ـــ من ارتكب جريمة اللواط فإنه يقتل .

١٠ ـــ من يتعمد الكذب لاخفاء جرم يستحق القتل يقتل .

١١ ـــ من يسرق سرقة كبيرة (ذات ثمن كبير) فانه يقتل .

١٢ ـــ من يتخذ السرقة مهنة يقتل .

١٣ ـــ من يسرق سرقة صغيرة ، كسرقة شاة ، يحاكم ، ويجلد مائة جلدة ، (حيث يضرب ضرباً مبرحاً بعصى غلاظ ، كما يضرب الحيوان) .

١٤ ـــ من وجد عبداً آبقاً ، فأواه ولم يعده إلى سيده ، فانه يقتل .

١٥ ـــ من يأتى إلى المغول ويدعى بأنه سفير ، ولم يكن كذلك فانه يقتل .

١٦ ـــ كل من يسحر ، أو يمتهن السحر من الرجال أو النساء ، فانه يقتل .

(وقد نفذ هذا الحكم فى حق ساحر وساحرة أثناء وجود « ويليم الربركى » فى بلاط الخان « منكو » وقد وصف ذلك فيما دونه لنا وصفاً جيداً[2] .

١٧ ـــ من يتجسس على غيره ، ليكشف شيئاً من حياته الخاصة ، أو سراً من أسراره ، أفراداً كانوا أم جماعة ، فانه يقتل .

إضافة إلى هذه القوانين ، التى جاءنا بها « ويليم الربركى » ، فقد جاءت اشارات إلى قوانين جزائية أخرى من هذا النوع ، عند ابن وطنه الرحالة

---

(١) الباليش عملة مغوليه ذهبيه . وكل باليش واحد يعادل ٢٠٠٠ (ألفى) دينار ذهبا . والباليش الممتاز يعادل مائتى (٢٠٠) دينار ذهبا . أى أن دية المسلم تصبح ثمانين ألف (٨٠٠٠٠) دينار ذهبا . والظن الحوينى مبالغا فى هذا ، أنظر « جهانكشاى » ١ ، ١٦٤ ، الترجمة الانجليزيه ٢ ، ٣٠٧ . أنظر كذلك « شجرة الأتراك » الترجمة الانجليزية ٩١ .

(٢) W. Rubruck, "The Journey" 104, 105, 199 - 200. See also De Bridia, "The Vinland Map and the Tartar Relation" Ed., by : R.A.Skelton, Yale Univ. Press, 1965. P : 94.

الايطالى « ماركو بولو » الذى ذهب إلى الصين ، وقابل الامبراطور « قبلاى بن تولى » وهو أخو الامبراطور « منكو » الذى قابله « ويليم » فى منغوليا لعل هذه تكون اشارات مختصرة إلى ما كان سائداً لدى المغول فى الصين ، طبقوها على البلاد التى خضعت لسلطانهم حديثاً ، لأن القانون الذى يسود البلد المفتوح ، ولو لفترة قصيرة على الأقل ، هو قانون الغالب ، سواء أتفق مع قوانين البلد المغلوب أم لم يتفق . **ولعلنى اتجرأ ، فيما ظهر لى** ، واضع ما جاء عند « ماركو بولو » فى صيغة قوانين مكتوبة ، وكلنا نعلم مدى ما وصلت إليه الحضارة الصينية من تقدم فى هذه الناحية ، لتكون بالصيغة التالية :

١٨ ــ من اعتدى على انسان فجرحه ، فانه يعاقب بنفس الجرح ، « والجروح قصاص » حيث يقوم المُعْتَدَىٰ عليه بتنفيذ العقاب بنفسه على الجانى .

١٩ ــ إذا سرق امرء شيئاً صغيراً فى قيمته ، فانه يجلد بعصاة سبع جلدات على الأقل .

٢٠ ــ إذا سرق امرء شيئين صغيرين فى قيمتهما ، فانه يجلد بعصاة سبع عشرة جلدة .

٢١ ــ إذا سرق انسان ثلاثة أشياء صغيرة فى أثمانها ، فانه يجلد بعصاة سبعا وعشرين جلدة . وهكذا كل شىء يضاف إليه عشر جلدات ، ٣٧ ــ ٤٧ ــ ٥٧ ــ ٦٧ ... الخ يضاعف الجلد بمضاعفة الأشياء ، عشراً عشراً ، عن كل عقوبة سابقة لها إلى أن يصل إلى ١٠٧ جلدات . (وقد يموت الانسان من الضرب)[1] .

٢٢ ــ إذا سرق انسان حيواناً يستحق بموجبه القتل ، فإنه يحكم عليه بالاعدام ، وينفذ فى حقه ، بحيث ينشر بمنشار إلى نصفين .

---

(1) Pola, Marco, "The Travels of Marco Polo", tr.. into Eng., A. RicciEdinburgh, 1932, P : 176.

٢٣ ـــ إذا سرق انسان حيوانات ، أو وجدت بحورته ، واستحق القتل نتيجة لسرقته ، وكان فى مقدرته أن يشترى نفسه وينجو من القتل ، فعليه أن يدفع عن كل حيوان سرقه تسعة حيوانات من نوع ما سرق ، أو قيمتها ، لقاء كل حيوان ، مع اعادة ما سرق . وإذا لم يستطع ذلك ، فانه يؤخذ هو وأطفاله ويسلمون لصاحب الحيوان المسروق ، مع الدابة المسروقة . وإذا لم يكن لديه أطفال ، فانه يذبح كما تذبح الشاه[1] .

من المعلوم أن المغول لا يتلفون أى شىء فيه غذاء للجسم الإنسانى، مهما كانت نوعية ذلك الغذاء ، حتى العظام يقرضونها ، ويأكلون منها ما يستطيعون قرضه بأسنانهم ، أو بأنيابهم ، أو طحنه بأضراسهم . كما أنهم يقتاتون ، ان جاع المرء منهم أو عطش ، وخاصة أثناء السفر الطويل ، على دماء حيواناتهم عامة والخيول التى يركبونها خاصة ، وذلك بوخز الوريد ، الذى فى الرقبة بآلة حادة ، فيتلقى من نزيف الدم ما يكفيه ، ثم يدلك الوخز ليلتئم حتى يقف نزول الدم . وقد سبق لنا مناقشة هذه النقطة ، وذكرنا أن الدم مما يتغذى عليه الانسان المغولى[2] .

إذا ، فان مسألة ذبح الحيوان المراد أكله ، واهراق دمه ، يعتبر ، كما يبدو لى ، فيه حرج شديد ، إضافة إلى أنه تبذير واسراف ، حتى أن ذبح وجعل دمه فى غرارة ، فقد يتلف منه شىء ، وفوق ذلك أن المغول يعتقدون أن الروح تكمن فى الدم ، فان أهرق دمه وساح على الأرض وفيها ، ونشف تعتبر روحه غاست فى الأرض . لذلك ، فقد جاء نص فى « الياسا » يحرم ذبح الحيوان ، المراد أكله ، بهذه الطريقة ، بل ويحدد الكيفية التى يتم بمقتضاها قتل الحيوان بغرض أكله ، والتى يمكننا أن نضع لها صياغة ، على ضوء ما جاء فى مصادر مادتنا ومراجعها ، كما يلى :

---

(١) Ibid, P. 176;

أنظر كذلك ابن بطوطه « رحلة ابن بطوطه » بيروت ، ١٣١٤ هـ/١٩١٤ م ، ص ٣٢٤

(٢) تكلمنا فى ، الفصل الثانى ، فقرة (١) . من كتابنا الذى تحت الطبع ، « بيئة المغول . »

٢٤ ــ يجب أن تربط قوائم الحيوان ، المراد أكله، بشكل جيد ، ثم يشق بطنه فيدخل انسان يده إلى حيث يقع القلب ، فيمسكه ويعصره بقوة حتى ينفق ذلك الحيوان[١] .

لقد كان المسلمون ، ممن دخل مظلة الحكم المغولى ، من أشد الناس معاناة وتأثراً بهذا القرار الوارد فى « الياسا » ، إلى جانب قوانين غيره ، كالغسيل أو الاغتسال فى الماء الراكد أو الجارى ، كما سيرد معنا ذكر ذلك بعد قليل . ومن سوء حظهم أيضاً أن « جنكيز خان » أناط مهمة الاشراف على تطبيق فقرات « الياسا » وقوانينها ، ومراعاة ما جاء فيها ، والحفاظ عليها إلى ابنه الثانى « جغتاى » الذى قال عنه الجوينى بأنه لا يحيد عما جاء فى « الياسا » قيد انملة ، فقد كان أشد المغول غيرة لها وتحمساً عليها ، فلا يُبقي انساناً ، مهما كان ، متى خرج عنها ، ولو بمقدار شعرة[٢] .

ومن سوء حظهم أيضاً أن أغلب الأراضى الاسلامية ، التى خضعت للمغول ، أعطيت لهذا الرجل ، عندما قسم « جنكيز خان » مملكته بين أبنائه الأربعة الكبار ، كما سبق أن ذكرنا ذلك فى بحث سابق لنا[٣] . وفوق ذلك جميعه أن « جغتاى » أتصف بخلال غير حسنة ، وخاصة فى تعامله مع مواطنى ولايته المسلمين . وكان والده يعلم ذلك ، فأبعده عن العرش المغولى ، خاصة بعد أن ظهرت حماقته أثناء حصار المغول لمدينة « جرجانة » عاصمة الدولة الخوارزم شاهية[٤] .

لذلك فقد كان موقف « جغتاى » من المسلمين فى هذا الخصوص قد بلغ

---

(١) الجوينى « جهانكشاى » ، ١/١٦٣ ، ٢٢٧ ، الترجمة الانجليزية ، ١/٢٠٦ ، ٣٧٣ .

(٢) الجوينى « جهانكشاى » ، ١/١٦٣ ، الترجمة الانجليزية ، ١/٢٠٥ .

(٣) « سقوط الدولة العباسية » ، ١٤ وبعدها .

(٤) نفس المرجع السابق ، ١٣٨ ومابعدها . كذلك المصادر والمراجع الواردة فى حواشى تلك الصفحات .

الغايه من التشدد ، فعانى المسلمون منه أقصى المعاناة وأشدها ، حتى أن المسلم لا يذبح أية ذبيحة إلا خفية ، وقد أجبروا على أكل الميتة ، على حد تعبير الجوينى ، ولا يغتسلون إلا ليلاً ، وبصورة غاية فى السرية والتكتم[1] . كما أن هذا المصنف قد أورد الكثير من القصص المتعلقة بذلك ، فى أماكن كثيرة ومتفرقة من كتابه ، منذ بسط المغول حكمهم على مشرق العالم الاسلامى عامة ، وبعد تقسيم « جنكيز خان » لمملكته ، ومجىء ابنه « جغتاى خان » بوجه خاص . كذلك أورد العديد من الحكايات تروى مواقف أخيه « أكتاى » المعاكس ، حيث أتصف بالحكمة ورجاحة العقل ، وفوق ذلك بالحلم والتسامح الواسع فى تعامله مع المسلمين وخاصة فى هذه الناحية[2] .

من عادات المغول وتقاليدهم الا يغتسلوا فى الماء الجارى ، والا يغسلوا ملابسهم ، أو ينشرونها فى العراء ، لأن ذلك له علاقة بأمور دينية واعتقادات معينة ، أدت إلى خوفهم من المطر ، والبرد والبرق والرعد ، إضافة إلى اعتقادهم بأن الماء الجارى شىء حى ، أى أنه من الكائنات الحية ، وأن له روح . لذلك فالعبث به قد يفسده .

جاء « جنكيز خان » فأكد على هذه الناحية ، ودونها على ما يبدو لنا ، فى « الياسا » ، وقد جاءت عند الجوينى ، فى ثنايا الكتاب ، كغيرها من القوانين ، التى جاءت عنده متناثرة فى مصنفه ، حيث لم يضعها ضمن القواعد والفقرات التى ذكر أغلبها تحت عنوان منفرد . وهنا أورد عدة قوانين فى فقرة واحدة ، وغايته فى ذلك الاختصار ، وعدم تدوينها جميعاً لئلا يطول به المقال ، كما ذكر هو ذلك .

لذلك ، فقد رأيت من الأنسب أن أعيد صياغتها ، **كاجتهاد شخصى ليس** إلا ، على شكل فقرات ضمن الاطار العام لما أوردناه من هذه القوانين . لعل

(١) الجوينى ، جهانكشاى ، ٣٣٧/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٧٣/١ .

(٢) نفس المصدر ، ١٦١/١ وبعدها ، الترجمة الانجليزية ٣٠٤/١ وبعدها .

هاتيك البنود تكون قد جاءت فى « الياسا » بصيغة تتضمن فى معناها العام ما يلى :

٢٥ ـــ لا تغسل الملابس حتى تبلى ، « لأن فى غسلها اتلاف لها وتبذير ، كما يبدو ، اضافة إلى الاعتقاد الدينى ، كما ذكرنا ذلك أعلاه » .

٢٦ ـــ من يغتسل فى الماء الجارى يقتل .

٢٧ ـــ من يغسل يديه ، أو شيئاً من جسمه فى الماء الجارى يقتل ، (وعندما يرغب المرء غسل يديه ، أو الشراب ، فلابد أن يغترف من الماء بإناء ، فيضع الماء فى فيه فيشربه أو ينثر الماء من فيه على يديه أن أراد غسلهما ، أو غسل أى جزء من بدنه) .

٢٨ ـــ من يغترف ماءً من مجراه بآنية من ذهب أو فضة ، فانه يقتل .

٢٩ ـــ من يغسل ملابسه فى الماء الجارى ، أو ينشرها فى العراء لتجف ، فانه يقتل .

٣٠ ـــ من يتبول فى الماء الجارى فإنه يقتل .

أشار الجويني بأن هذه القوانين منصوص عليها بألا ترتكب محظوراتها فى فصل الربيع والصيف . وقد علل ذلك بأن مواسم الأمطار تأتى فى بلادهم فى هذين الفصلين[1] .

لو رجعنا إلى المصنفات الأخرى المعاصرة ، والتى أعتمدنا عليها فى بحثنا هذا ، كمصنف « جون الكريني ، ووليم الربركي » وغيرهما ، لما وجدنا الأمر هذا محرماً فقط فى فصل بعينه ، بل ربما كان عاماً ، وشاملاً فى كافة الفصول ، صحيح أن مواسم الأمطار هناك فى الربيع والصيف ، ولكن هذا لا يمنع أن يكون التحريم بشكل دائم ، علماً بأن الجوينى علل ذلك لأسباب دينية

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ، ١/٦١ ، الترجمة الانجليزية ، ١/٢٠٤ ـــ ٢٠٥

(٢) نفسه ونفس الصفحات . أنظر كذلك : W. Rubruck, "The Journey..." 103.

وعقائدية ، مصدرها الخوف من أن يؤدى ارتكاب ذلك المحذور إلى غضب اله المطر والرعد والبرق ، فتزداد هذه الأمور ، حتى أنه عندما يقصف الرعد ، فانهم يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت ، وخشية أن يخطف البرق أبصارهم . وأضاف بأنه عندما ترعد السماء وتبرق ، فأنهم يصبحون بُكْماً صامتين كالحيتان فى جوف الماء . وإذا ما أصيب انسان بصاعقة فانهم يطردون كافة قبيلته ومن يلوذ به بعيداً عنهم ، ولمدة ثلاث سنوات ، وفى خلال تلك المدة لا يسمح لأى واحد منهم أن يدخل مسكن الأمير . وإذا أصيب حيوان من بين قطيع ، فانهم يطردون بقية ذلك القطيع عنهم لعدة أشهر ، وبعيداً عنهم . أما وضعهم من ناحية التموين الغذائى فانهم لا يأكلون الطعام خلال المدة المتبقية من ذلك الشهر الذى وقعت فيه الحادثة ، وفى نهاية ذلك الشهر يعقدون احتفالاً كبيراً ، ابتهاجاً بنهاية أيام ذلك الشهر العصيبة ، التى مرت بهم[1] .

---

(١) نفس المصادر السابقة والصفحات

« الياسا الدينية » :

سبق لنا أن ناقشنا موضوع الديانة فى المجتمع المغولى ، ووجدنا أن المغول يؤمنون بإله واحد ، أبدى ، سرمدى ، خالد ، خالق كل شيء ، ومبدع الكون ، وهو الرازق ، والمعطى ، والمانع ، كما ورد على لسان الامبراطور « منكو » يخاطب « ويليم الربركى » سفير الملك الفرنسى « لويس التاسع »[1] . ورغم ذلك فإن هذا الاعتقاد لم يمنعهم من عبادة آلهة أخر ، كالشمس ، والقمر ، وغيرهما من الظواهر الطبيعية وغير الطبيعية ، التى خلقها الله وقدرها . ولذلك فقد صنعوا التماثيل لآلهة أخر . وفوق هذا ايمانهم العميق بالخرافات والخزعبلات ، الأمر الذى نتج عنه أن أصبحوا شديدى التطير ، يؤمنون بالفال الحسن والنحس . ولقد رأينا سابقاً كيف كان كهنتهم يحرجالاً ونساءً على حد سواء ، يلعبون دوراً بارزاً فى حياة مجتمعهم بشكل عام[2] . لهذا السبب نجد أن « جنكيز خان » يتطرق إلى هذه الأمور فى « الياسا » ، حيث فرض احترام كل من يخدم ديانة ، ايا كانت ، وجعلهم أحراراً ، لا يكلفون بأى عمل من أعمال الخان ، أو الدولة ، وأعطاهم حق الدخول عليه وبدون استئذان ، وإذا أرتكب أحدهم ذنباً ، مهما كان ، لا يعاقب عليه ، كل هذا خلاف بقية أفراد طبقات المجتمع المغولى فى مجموعه . وقد جاء نص عند ابن العبرى ، فى هذا الشأن كما يلى :

« ولما علا شأن جنكيز خان أرسل إلى جميع شعوب الترك ، فمن أطاعه وتبعه سعد ومن خالفه خذل . وأنعم على « تب تنكرى » وذريته بأن جعلهم تركخانية وهو الحر الذى لا يكلف بشيء من الحقوق السلطانية ، ويكون ما يغنم من الغزوات له مطلقاً لا يؤخذ منه نصيب للملك ، وزاد لهؤلاء (يعنى رجال الدين) أن يدخلوا على الملوك بغير اذن ولا يعاقبوا على ذنب إلى تسعة ذنوب »[3] .

---

(١) W. Rubruck, "The Journey..." 195.

(٢) أنظر الفصل الرابع فى الفقرات ١ ، ٢ ، ٣ ، من كتابنا تحت الطبع « بيئة المغول الطبيعية . الخ »

(٣) ابن العبرى « تاريخ مختصر الدول » ٣٣٧ .

كان المغول عامة ، و« جنكيز خان » خاصة ينظرون إلى الأديان المختلفة على أنها عدة وجوه لعملة واحدة ، وطرق متشعبة ، ومختلفة تقود كلها إلى هدف واحد ، وهي عبادة الآله الخالد ، الأبدي الوجود ، المتربع على عرش فوق السماء الزرقاء . من هذا المنطلق لم يُميِّزْ أصحابُ دين على آخرين ، ولم يضع ديناً فوق دين ، بل نظر إليها وإلى أصحابها كل ذلك بنظرة متساوية . فقد كان ينظر إلى المسلمين بعين الرضا والاحترام ، كما كان يمنح نفس المكانة للمسيحيين والوثنيين . أما نظرته إلى العلماء والمثقفين والاداريين ، فقد كانت نظرة اجلال وتقدير ، واحترام . وعلى هذا المنوال سار أبناؤه وأحفاده ، رغم اعتناق بعضهم لهذا الدين ، أو ذاك ، أو بقاء البعض الآخر على ديانة والآباء والأجداد ، وهذا ما أشار إليه الجويني ، جاء به كشيء منصوص عليه في « الياسا » . ولعل هذا الاحترام من قبل أبناء « جنكيز خان » وأحفاده ، للأديان المغايرة لما يعتقدونه لورود نص له في « الياسا » حيث جاء به الجويني قائلاً بأن أبناءه وأحفاده يجب إلا يحيدوا عما جاء في « ياسا جنكيز خان » وهي :

ـ يجب أن ينظروا إلى كافة الأديان على أنها شيء واحد ، وإلا يميزوا واحداً على الآخر[1] .

أما ابن العبري « بارهيروس » فقد أورد هذه الفقرة تحت رقم (٣) عنده ، على نحو مشابه إلى ما جاء عند الجويني ، إلا أنه أضاف بأنه :

ـ يجب أن يمقتوا الشر والأشرار . » كما أضاف بأن المغول أحبوا المسيحيين في أول الأمر ، إلا أنهم فيما بعد أصبحوا لا يطيقون تصورهم ، فقد تحولوا (يعني المغول) إلى مسلمين ، وباعداد هائلة »[2] .

---

(١) الجويني ، « جهانكشاي » ، ١٨/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٦/١ .

(٢) "The Chronograph The Kings of the Arabs" 354.

كما أن المؤرخ الأرمنى « ماهاكيا Mahakia » أورد مسألة تسامح المغول الدينى ، ونظرتهم المعتبرة تجاه رجال الدين ، الذين سماهم خدام الله وعبيده ، مع غيرها من القوانين ، وعقوباتها ، مثل : الكذب ، والزنا ، والسرقة ، وغير ذلك . إلا أنه أضاف أمرا آخر ، وهو إعفاؤهم وأماكن عباداتهم من الضرائب الحكومية[1] .

بناءً على ذلك يمكننا أن نضع صيغة للقوانين المنظمة لهذا الجزء من « الياسا » ، اعتماداً على ماورد فى مصادر ، الأولى التى تسنى لنا العثور عليها ، بشكل نحاول فيه أن يتضمن فحوى روايات هاتيك المصادر مجتمعة ، وذلك على النحو التالى :

١ ــ يجب أن ينظر إلى كافة الأديان نظرة احترام وتقديس ، وعلى قدر المساواة ، فلا يفضل دين على آخر ، أو أن تحابى ملة على غيرها .

٢ ــ يعامل رجال كل ملة ، وخدامها ، بكل تقدير واحترام ، ويعفوا من جميع الخدمات ، التى يقدمها الأفراد العاديون إلى الدولة ، لأنهم شفعاؤنا (حسب زعمهم) عند الله .

٣ ــ يجب أن ينظر إلى أماكن عبادة كل دين نظرة اجلال وتقديس .

٤ ــ يعفى من الضرائب ومن الخدمات العامة التى تقدم للدولة ، جميع المنقطعين لعبادة الاله الأبدى ، الخالد البقاء ، لأنهم نذروا حياتهم للزهد ، والتنسك ، والتعبد لله « وهذه الفقرة تشمل من المسلمين : أئمة المساجد ، وخدامها والقيمين عليها ، والمؤذنين والقراء والمعلمين للقرآن والحافظين له والمنقطعين للعبادة » وتشمل من فى حكمهم من اتباع الأديان الأخرى ، وكذلك كل من يقوم على اعداد القبور ، وتهيئة الموتى ، واعداد الجنائز ، والترتيب لها لمواراتها إلى مثواها الأخير كتغسيل الميت ، وتحنيطه ، وتكفينه ، والاشراف على موازاته ، ومن فى حكمهم من أصحاب الديانات الأخرى » .

(١) Riasanovsky, "Fundamental", P. 85. Patkanov "The History of the Mongols Based on the Armenian Annals" see also W. Rubruck "The Journey..." 121 - 125; J. Carpini, "The History..." 14.

« الياسا والآداب العامة » :

كان هناك العديد من التقاليد والأعراف العامة تسود المجتمع المغولي قبل ظهور « جنكيز خان » . ومع ذلك نجد بعض المصنفين يدرجونها تحت قائمة القوانين التي نسبت إلى هذا الخان المغولي . لعل من أهم هاتيك القوانين مسألة أحقية المسافر ، الذي يمر بقوم يأكلون ، مشاركتهم طعامهم ، حتى وان لم يدعوه إلى ذلك ، وبدون أن يكون هناك سابق معرفة بعضهم ببعض . ثم مسألة واجبهم أن يدعوه لمشاركتهم ، والافساح له بينهم ، حتى دون سابق معرفة أيضاً ، هذا بالاضافة إلى فقرتين أخريتين ، يظهر أن الخان اضافهما لأسباب سنشرحها عند تناول كل واحدة من ذلك .

من المعروف بين المغول أن كل من صادف انساناً واحداً ، وهم يأكلون طعاماً لهم ، سواء أكان المار رجلاً أو أكثر ، فإن له ، أو لهم ، الحق بأن ينزلون مع من يأكل ويشاركونه مأدبته ، أياً كانت ، وبشكل جماعي ، كما أن من واجب أصحاب الأكل ، أو صاحبه ، أن يدعو كل من يمر به بأن يجلس ، وأن يأكل معه سواء قبل البدء فيه ، أو أثناء ذلك . وقد وقع شيء مماثل لهذه الحادثة ، لوالد « جنكيز خان » « يسوكاي بهادر » ، حيث وجد ، في آخر سفرة له ، قوماً من التتر يأكلون من طعام لهم ، فجلس ، وشاركهم فيما كانوا يأكلون ، سواء دعواه أم لم يدعوه . وهنا تذكر الروايات أن التتر عرفوه ، وقد ظن هو أنهم لم يعرفوه ، فدسوا له سماً بطريقة ، أو بأخرى ، فيما قدم له من أكل ، وذلك للعداوة التي كانت متأصلة فيما بينهم « بين المغول والتتر » فمات « يسوكاي بهادر » من أثر ذلك السم[1] .

هذه الحادثة جعلت « جنكيز خان » على ما يظهر لنا ، يدون هذا العرف

---

(١) أنظر : كتابنا « سقوط الدولة العباسية » ٥٩ ، ٦٦ . أما عن المغول والتتر وعلاقتهما ببعضهما فانظر : رشيد الدين ، جامع التواريخ ، ١/٥٧ ـ ٧٠ ، كذلك ، ما ورد في حواشي المرجع الأول من مصادر ومراجع فيما يتعلق بهذا الموضوع .

المغولى كفقرة من الفقرات الواردة فى « الياسا » ، ثم يضيف إليها فقرتين أخريتين ، كضابط لها وصمام أمان ، ولكلا يتركها هكذا ، لتصبح مجالاً ، وفرصة ، لذوى النفوس الحاقدة لتنفيذ أغراض عدوانية كتلك التى وقعت لوالده . فجاءت تلك الفقرة تحتم على كل صانع طعام ، أو صاحب أكل ، يقدمه لأحد من الناس ، فرادى كانوا أم جماعة ، بأن يبدأ هو أولاً فى الأكل ، ويتناول مما سيقدمه إلى أضيافه ، كما أنه يحق للضيف الا يأكل من طعام رجل ما لم يبدأ صاحبه أولاً بالأكل منه .

يظهر لنا أن « جنكيز خان » رأى من الحيف والأجحاف فى حق المُطْعِم ، أن يستغل المسافرُ ، أو المسافرون ، الذين يمرون على رجل ويشاركونه طعامه ان يستحوذوا عليه كله ، أو على أغلبه ، انطلاقاً من مبدأ هذا العرف ، أو التقليد ، لذلك نجده يضع له ضابطاً فى فقرة أخرى ، حيث حددت بالا يستأثر واحد من الناس من الأكل بأكثر من غيره ممن يشاركه فيه . ومن أتخذ مضغة من طعام فلم يبتلعها ، أو غص بها ، فانه يقتل . إذاً فلم يأت ذلك الخان بجديد هنا ، فيما يتعلق بالفقرتين الأخيرتين ، إلا أنه جعلها قانوناً ضمن « الياسا » .

بناءً على ما سبق نقاشه يمكننا أن نصيغ ما سبق ذكره ، من بنود على النحو التالى :

١ ــ يحق لكل مسافر أن يشارك أى انسان يجده فى طريقه يأكل طعاماً له ، دون أن يتلقى دعوة منه .

٢ ــ يجب على كل صاحب طعام يمر عليه مسافر دعوته إلى مشاركته ما يأكل .

٣ ــ يتحتم على المسافر المدعو إلى تناول طعام أن يلبى الدعوة ، وأن يشارك صاحب الطعام أكله .

٤ ــ إذا جلس قوم على طعام ، فليس لواحد منهم أن يأكل أكثر من غيره ، ومن يفعل ذلك يقتل .

٥ ــ يجب على صاحب الطعام أن يأكل منه قبل أن يشرع المُطْعَمُود فى الأكل من طعامه .

٦ ــ يحق للمُطْعِم أن يرفض أكل ما قدم له من طعام ، ما لم يأكل منه صاحبه أولاً .

« الياسا » والتنظيم العسكرى عند المغول :

أن الدارس لتاريخ المغول ، قبل ظهور زعيمهم «تيموجين» وتوحيد قبائلهم المختلفة ، تحت رئاسته ، وتدبيره وسلطانه الشخصى بوجه عام ، وتاريخ صراع هذا القائد ، حتى اعلانه « جنكيز خان » عليهم على وجه الخصوص ، ليجد بأن ولاء أية قبيلة من قبائل ذلك المجتمع ، بل ولاء أى فرد من أفراده ، لأى زعيم ، يرتبط ارتباطاً وثيقاً ، بل وأساسياً ، بما يمتلكه ذلك الزعيم من ثروة عينية ، يضعها بين يدى اتباعه ومريديه ، وتحت تصرفهم ، وفوق ذلك كله مدى قوته وحسن تدبيره وحنكته فى قيادة المعارك ، لأن ذلك قد يقود إلى الانتصارات الدائمة على الخصوم فى ميادين القتال ، ثم أسر الأعداء وسلبهم ما يملكون ، فهذا يجعل أيديهم ممتلئة على الدوام بالغنائم . اضافة إلى بعض المؤهلات الشخصية الأخرى ، كالشجاعة ، والحزم ، والضبط الادارى ، وان كانت هذه الصفات عندهم أمراً ثانوياً . فقد رأينا اتباع « تيموجين خان » ينفضون عنه عندما هزم أمام أعدائه ، بزعامة « أونك خان » ملك « الكرايت » وحلفائه ، حيث لم يبق معه سوى عدد لا يتجاوز مجموعهم عدد أصابع اليدين ، ثم يعودون إليه فى غمضة عين ، بمجرد بلوغهم نبأ يفيد بأنه أصبح يمتلك عدداً كبيراً من الخراف . لذلك فقد كانت تجربة « جنكيز خان » مع قومه مريرة ، لدرجة أفقدته كل شيء ، وهو مازال فى أول مشروع يؤسس ملكاً له . ولولا ظروف معينة ، طرأت لانتهى « تيموجين » ومعه أنتهت حياته ، وقوته ، وقد سبق لنا مناقشة هذه النقطة فى بحث سابق[1] .

---

(١) « سقوط الدولة العباسية » ٦٩ ــ ٧١ ، ١٠٩ ــ ١١٤

بناءً على هذا ، نجد « جنكيز خان » يحتاط للدرء تكرار شيء من هذا ، فيستغل ، على مايبدو لنا ، ذلك الاجتماع العام ، عندما توج « جنكيز خان » ، باصدار مجموعة قرارات ، ذات فعاليات قوية ، لتدعم نفوذه ، وسلطانه ، وكل من يحتل منصب الخان من أبنائه وأحفاده ، وكل هاتيك القرارات صريحة العبارة فى تحريم التلاعب بالولاء ، بل تؤكد جميعها على الانضباطية والولاء له ، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر . ولقد جاء العقاب صارماً لمن يهرب ، أو يتخلى عن سيده أو رئيسه المباشر ، أو يتراخى فى قتال الخصوم ، أو لم يسارع فى انقاذ رفيق له قد أسر ، مهما كلفه ذلك . كل هذه الأمور ستتضح لنا فى فقرات قانونية ، يذكر بأنها جاءت فى « الياسا » .

لقد كان ذلك النظام يتضمن المراقبة الشديدة ، وبشكل دائم وفى غاية من الحزم ، للحيلولة دون الفوضى واللامبالاة ، وتفرض الانضباطية ، فى نظام صارم يحول دون تحول فرد أو جماعة من فصائلهم إلى فئات من الكتائب العسكرية المغولية الأخرى . ثم فوق ذلك كله ، اشغالهم الدائم بالفتوحات والتوسع ، لكسب أراضى جديدة لامبراطوريتهم ، أما إذا لم يكونوا مشغولين بالغزو والفتح ، فإن نظاماً قد أستحدث لهذا وهو اشغالهم بالصيد ، كتمرين عسكرى ناجح جداً ، إذ أن المتهاون فيه يعاقب بالموت ، اضافة إلى فوائد غير ذلك ، كما سنرى فيما بعد .

إن أول نظام عمل به « جنكيز خان » كأسس الانضباطية ، وقتل الفوضى ، هو أنه قام بتقسيم الشعب ، بأسره إلى النظام العشرى ، وأصدر بذلك قرارات يمكننا استنتاجها مما جاء به كل من الجوينى وابن العبرى (وهو بارهيروس) إضافة إلى أن شيئاً من هذا جاء عند « جون الكريبنى » . ولعل هاتيك القرارات أو الاصدارات الخانية ، التى تذكر مصادرنا بأنها جاءت فى « الياسا » تكون قد جاءت بالصيغ التالية :

١ ــ تقسم الأمة إلى عشرات ، وإلى مئات ، وإلى ألوف ، وإلى عشرات ألوف ، يقوم على رأس كل تسعة رجال منهم عاشرهم وهو عريفهم ، ويعين على عشرة عرفاء واحد من بينهم كرئيس أعلى على مائة (أى على عشرة عشرات) ، ثم يتم اختيار واحد من بين الرؤساء العشرة لفصائل المئات ليكون قائداً لهم ، وبذلك يصبح قائداً لألف رجل ، وأخيراً ينصب رجل واحد من بين مجموع رؤساء الألوف العشرة ليكون قائداً عاماً « نويان » أى أنه قائد لـ تومن Tumen .

أوضح « جون الكربيني » ، في مكان آخر ، المسؤولية الهرمية لهذا التقسيم ، بشكل أكثر دقة ووضوحاً ، فاعتبرته مكملاً لما نحن بصدده ، حيث يقول بأن الرؤساء الكبار هم الذين يحددون مراكز قادة الألوف وسلطانهم ، كما أن قادة الألوف هم الذين يعينون مسؤوليات قادة المئات ومواقع تمركزهم ، وقادة المئات هم الذين يوزعون واجبات قادة العشرات وصلاحيات كل فرد منهم[٢] . وقد أشار هذا المصنف في مكان آخر إلى أن هذا الأمر هو من القوانين التي أصدرها « جنكيز خان »[٣] . من القرارات الأخرى كذلك ما يلي :

٢ ــ لا يجوز مطلقاً ، وتحت أي ظرف مهما كان قاهراً ، لأي رجل أن ينتقل من فئته التي ينتمي إليها ، إلى مجموعة أخرى ، سواء من العشرات إلى المئات ، أو من الأخيرة إلى مجموعات الألوف ، أو من هذه إلى فصائل عشرات الألوف ، مهما كانت الأسباب ، ومن يفعل ذلك يحاكم على ملأ تمهيداً لاعدامه ، كذلك : لا يسمح ، تحت أي ظرف من الظروف ، لأي فرد ينتمي إلى أية مجموعة ، أن يهرب من مجموعته إلى أي من المجموعات الأخرى .

---

(١) أنظر في هذا الخصوص بعض مصادر مادتنا الأولى مثل « الجويني » ، « جهانكشاى » ، ٣١/١ ، الترجمة الانجليزية ٣١/١ ، ابن العبري « تاريخ مختصر الدول » ٣٥٤ ، كذلك J. Carpini, "History...", 32 - 33.

(٢) J. Carpini, "History...", 27.

(٣) Ibid., 26.

ومن يفعل ذلك فانه يحاكم على ملأ ، ويقتل ، كذلك : أن أى عريف من عرفاء العشرات ، أو رئيس من رؤساء المئات ، أو قائد من قواد الألوف ، أو قائد عام من قادة العشرة آلاف يقبل فى مجموعته رجلاً ينتمى إلى غيرها ، فانه يحاكم على ملأ من القادة الآخرين ، ثم يقتل ، كذلك : أن من يقوم بايواء جندى ، أو قائد آبق من مجموعته ، فانه يحاكم على ملأ ، ثم يقتل ، حتى وإن كان الهارب ، قائداً أم جندياً ، من أبناء « جنكيز خان » فانه يقتل ، أن هو قبل أحداً فى مجموعته ، أو أوى هارباً ، أو كان هو الهارب .[1]

وقد طبق هذا القرار ، مع غيره من القرارات الأخرى ، على أبناء الخان نفسه ، وأخوانه وذويهم ، كما يطبق على أقل رجل فى الدولة ، فلا فرق بين فقير أو غنى ، أو رفيع أو وضيع ، كل ذلك ليتفادى أى انتهاك لـ « الياسا » ، كذلك :

٣ ــ لا يجوز لأى امرء أن يتخلى عن قائده ، كما أن القائد ليس له الحق ولا يستطيع أيضاً أن يطرد أحد رجاله من مجموعته[2] .

إذا كانت هذه قرارات « جنكيز خان » جاءت فى « الياسا » تحدد مسؤولية كل فرد وحقوقه وواجباته مع من تحته ومع الذى فوقه ، كتنظيم انضباطى ، فى حركات الجندى وسكناته ، فكيف كانت علاقته بغيره فى ميدان المعركة مع زملائه ، وكيف يتعامل مع عدوه ؟ مادام قد وضع هذا الخان كل شىء فى دولته ليخدم سلطانه ويقوى نفوذه ، فى شكل قرارات ، فانه ، بكل تأكيد ، لابد أنه جعل الأولوية فى قراراته ، الواردة فى « الياسا » تتعلق بالقتال ، وشؤون الجندية فى ميدان المعركة ، ومنازلة الخصوم ، وهى أمور هى العمود الفقرى للامبراطورية المغولية وعمارها ، بل أن أكثر من تسعين فى المائة من نشاط المغول هو القتال ، وخوض المعارك ، واحدة بعد

(١) الجوينى ، « جهانكشاى » ٣٤/١ ، الترجمة الانجليزية ٣٣/١ كذلك بارهيروس ، تاريخ مختصر المغول ، ٣٥٥ فقرة ٧ .

(٢) نفس المصدرين السابقين وصفحاتهما . كذلك أنظر « شجرة الأتراك » ٩٥ ــ ٩٦ .

أخرى ، وبشكل متواصل لأكثر من مائة سنة . إذاً فلا بد أن يكون هناك أمور قانونية ، صدرت بموجبها قرارات خاصة فى هذا الشأن .

مما جاء به لنا « جون الكريبنى » يمكننا استنتاج بعض هاتيك القرارات العسكرية ، وبالتالى ، **وكاجتهاد شخصى فقط** ، لعلى اتجاوز وبحذر شديد واقترح صياغتها ، كشىء يذكر بأنه ورد له ذكر فى « الياسا » . والذى جعلنى أقول ذلك هو صرامتها ، وثقل وطأتها ، وشدة عقوبتها ، كل ذلك يوحى بأنها من وضع ذلك الخان ، وبعد تجربته المريرة مع « أونك خان » وحلفائه ، فى أول صراعه لتكوين امبراطوريته ، والتى كاد أن يذهب ضحية الفوضى العسكرية فى صفوف جنده . إضافة إلى أن هذه الأمور لم تكن مألوفة قبله ، على ما بدا لى من خلال اطلاعى القاصر . من هاتيك القرارات ما يلى :

٤ ــ أن من يفر من ميدان المعركة أمام العدو يقتل ، وإذا قام رجل ، أو اثنان أو ثلاثة ، أو حتى أكثر من ذلك ، وهم من ضمن مجموعة العشرة ، فولوا العدو ادبارهم فانهم يعدمون جميعاً ، كذلك :

٥ ــ إذا هربت كل المجموعة ، المكونة من عشرة ، فيتحتم على بقية المجموعات الأخرى المكونة للمائة أن تتقهقر إلى الوراء وبانتظام ، وإذا لم يفعلوا ذلك فانهم يقتلون ، (بمعنى أنه يجب على كافة الكتيبة العسكرية أن تنظم انسحابها ، وبشكل جماعى متفق عليه بين قادة العشرات ، وقائدهم الكبير ، وإلا فالذين يفرون من أمام العدو يقتلون . فأما اقدام جماعى ، أو انسحاب جماعى ، وعلى أى وجه ، وإلى اية ناحية ليكونوا منظمين حتى فى الانسحاب[1] . كذلك :

٦ ــ إذا أقدم رجل أو أكثر على اقتحام صفوف الأعداء ، يقاتلونهم بجسارة ، فانه يتوجب على البقية الباقية من أفراد المجموعة أن يفعلوا مثل ما فعل أصحابهم ، ومن لم يتقدم فانه يقتل ، كذلك :

---

(١) ، (٢) J. Carpini, "History" ... 46 47.

٧ ــ إذا أسر الأعداء واحداً ، أو أكثر ، فإن على بقية رفاقهم من العشرة ، أن يسارعوا لانقاذه ، حتى لو تطلب الأمر أن يقعوا فى الأسر أنفسهم ، ومن لم يفعل ذلك يقتل ، كذلك :

٨ ــ كل من يترك رفيقه ، فى حالتى الهجوم على الاعداء ، أو الانسحاب والتقهقر بانتظام ، وما لم يكن الأمر جماعياً ، تنزل بهم العقوبات الرادعة ، حيث تقوم فرقة مغولية من المقاتلين فتلاحق الكتيبة المنهزمة فتسطرها بوابل من سهامها القاتلة ، حتى تفنى كافة المنهزمين ، بينما يواصل الباقون القتال[1] . كذلك :

٩ ــ كل من يترك قتال الأعداء ، بعد هزيمتهم ، ثم يشرع فى السلب والنهب ، وقبل أن يتم القضاء على الخصوم نهائياً ، فانه يقتل دونما شفقة بحقه أو رحمة بذويه[2] ، كذلك :

١٠ ــ من نسى متاعه ، أو وقع منه شىء ، أثناء نزال العدو وخصامه ، وفى حالتى الهجوم أو التربص بالأعداء ومحاولة جرهم إلى كمين معد لهم ، تحت مكيدة الانسحاب الظاهرى ، أو سقط من سلاحه شىء ، كرمح ، أو سيف ، أو قوس ، فانه يتحتم على رفيقه المقاتل الذى يجرى أو يسير خلفه ، راكباً كان أم ماشياً ، أن يقف ، أو ينزل أن كان راكباً ، من على ظهر دابته ويأخذ ما سقط من صاحبه أو نسيه ، وأن يعيده إليه ، ومن لم يفعل ذلك فانه يقتل ، كذلك :

١١ ــ لا يشترك قادة الجيش العامين فى القتال ، بل يجب على كل قائد عام « نويان » أن يظل بعيداً وفى مكان مناسب ، بحيث يدير سير المعركة منه . كذلك :

١٢ ــ من يطعم أسير حرب أو يسقيه ، أو يكسوه ، دون موافقة آسره ، أو علمه فانه يقتل ، كذلك :

١٣ ــ من يأوى أسيراً هارباً ، ولم يعده إلى آسره فإنه يقتل .

---

(١) ، (٢) J. Carpini, "History...", 46-47

(٣) J. Carpini, "History...", 46-47

الخاتمـــة :

درسنا فى هذا البحث المتواضع ، بعض الفقرات التى جاءت فى ما عرف فى التاريخ بـ « الياسا أو القوانين » والتى تنسب إلى جنكيز خان ، فقسمناها إلى أقسام ، حسب اختصاص كل فقرة ، أى أن كل مجموعة جعلناها مستقلة لعلاقتها بموضوع واحد . فدرسنا الفقة التى تخص الخان ولقبه وسلطاته ، التى يستمدها من الجمعية العمومية الشعبية ، وكذلك نظرة « الياسا » الى المجتمع الدولى . ثم أتينا بعد ذلك بكل فقرة من فقراتها ، وهذا حسب اجتهادنا الشخصى وما أمكننا استنتاجه ، لها علاقة بالجنايات تحت عنوان « الياسا الجنائية أو العقوبات الجنائية » ، وكل ما يخص النواحى الدينية جمعناه وأدرجناه تحت « الياسا الدينية » . هذا بالاضافة إلى أمور تتعلق بالآداب العامة ، فاقترحنا أن يكون « الياسا والآداب العامة » ، وأخرى ذات مسائل عسكرية فأتينا بها كوحدة مستقلة تحت عنوان « الياسا والتنظيم العسكرى عند المغول » .

وفى الختام رأيت أن أنوه إلى حقيقة مهمة هى : أن هناك قوانين ، غير هذه التى تطرقنا لها ، ورد لها ذكر ، بشكل أو بآخر ، فى بعض المصنفات الأولية المعاصرة المتعلقة بتاريخ المغول ، أو ماله صلة به . من هاتيك القوانين ما يذكر أموراً ادارية ، أو سياسية أو تجارية أو البريد وخدماته ، أو مسائل اجتماعية ، كالمواريث وواجبات الفرد وغيرها . لعلها تجد من يدرسها أو بعضها ، بشكل أو بآخر ، من باحثينا فى العالم العربى ، ممن له اهتمامات . فيتطرق إلى ما بحثناه بالنقد البناء ، لعله يساعدنا فى تكوين قاعدة أو فكرة شمولية لنخرج بنتائج ودراسات أفضل من هذه التى أتينا بها هنا ، وهى جهد المقل .

والله من وراء القصد وهو المستعان ....

مصادر البحث ومراجعه

أولا ــ المصادر القديمة :

أ ــ المخطوطات

ــ العمرى ، شهاب الدين بن فضل الله — لغة المصدر: عربية
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » : مخطوطة أيا صوفيا (بمكتبة السليمانية) ، رقم ٣٤٣٩ .

ب ــ بلغة اسلامية (عربية وفارسية)

ــ ابن بطوطه ، محمد ، — عربية
« رحلة ابن بطوطه » ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ/١٩٦٤ م

ــ الجوزجانى ، القاضى منهاج الدين سراج ، — فارسيه وله ترجمة انجليزية
« طبقات ناصرى » تحقيق عبد الحى حبيبى ، كابل ، ١٣٤٣ هـ . ش حققه وترجمه إلى الانجليزية ، الميجر/ هـ . ج . رافرتى ، لندن ، ١٢٩٨ هـ/١٨٨١ م ، أعيدت طباعة الترجمة الانجليزية فى عام ١٩٧٠ م .

ــ الجوينى ، علاء الدين عطا ملك ، — فارسية
« تاريخ جهانكشاى » تحقيق الأستاذ : ميرزا محمد بن عبد الوهاب القزوينى ، طبعة ليدن ، ١٣٢٩ هـ/١٩١١م ١٣٣٤ هـ/١٩١٦ م ، ١٣٥٥ هـ/١٩٣٧ م . ترجم إلى الانجليزية على يدى الأستاذ الدكتور/ج . أ . بويل ، تحت عنوان : « تاريخ فاتح العالم » ، مطبعة جامعة مانشستر ، ١٩٥٨ م . — ترجمة انجليزية

ــ رشيد الدين ، فضل الله الوزير بن عماد الدولة ، — فارسية
« جامع التواريخ » حـ ١ من بداية قبائل المغول حتى نهاية حكم تيمور قاآن ، حـ ٢ من بداية سلطنة هولاكو خان

حتى نهاية حكم غازان خان ، تحقيق/ب . كريمى ، طهران ، ١٣٣٨ هـ ش .

— رشيد الدين (موئير ، د . ج . ميتلند) ، « دراسة وترجمة جامع التواريخ لمؤلفه رشيد الدين فضل الله الخاص بالقبائل التركية والمغولية » : أطروحة قدمها موئير إلى جامعة لندن ، مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية ، لندن ، ١٩٥٧ م لنيل درجة الدكتوراه . — فارسية ترجمة انجليزية

— خواند أمير ، غياث الدين بن همام الدين ، « تاريخ حبيب السير فى أخبار أفراد بشر » ، تحقيق/م . د. سياق ، طهران ، ١٣٣٣ هـ . ش . — فارسية

— ابن العبرى ، كريكورى أبو الفرج ، « تاريخ مختصر الدول » ترجمه المؤلف من اللغة السريانية إلى العربية حققه ، صالحيانى ، بيروت ، ١٩٥٨ م . — السريانية وترجم إلى العربية

— القزوينى ، حمد الله المستوفى ، « التاريخ المختار ، أو التاريخ المنتخب تاريخ كزيده » تحقيق نوائى ، طهران ١٣٣٩ هـ . ش . ، ترجمه إلى الانجليزية الأستاذ الدكتور/أى براون ، لندن ، ١٩١٣ م . — فارسية وله ترجمة انجليزية

— (مجهول المؤلف) ، « تاريخ المغول السرى » ، « تاريخ سرى مغولان » ترجمته من الطبعة الفرنسية (طبعة باريس ، ١٩٤٩ م) إلى اللغة الفارسية الدكتورة شيرين بيانى ، طهران ، ١٣٥٠هـ.ش — صينيه مترجم إلى الفرنسية ومنها إلى الفارسية

ـ (مجهول المؤلف) ، « شجرة الأتراك » حققه وترجمه إلى الانجليزية ، الكولونيل ميلز ، لندن ، ١٨٣٨ م . — الفارسية مترجم إلى الانجليزية

ـ المقريزى ، تقى الدين أحمد ، « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ، بيروت ، دار صادر ؟ — عربية

ـ ميراخواند ، محمد بن خواندشاه ، « تاريخ روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء » ، طهران ، ١٣٣٨ هـ . ش . — فارسية

ـ النسوى ، شهاب الدين محمد المنشىء ، « سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى » ، تحقيق حافظ حمدى ، القاهرة ، ١٩٥٣ م . — عربية

ـ وصاف الحضرة ، شرف الدين عبد الله أو (شهاب الدين عبد الله) ، « تاريخ وصاف » المعروف أيضا بـ « كتاب تجربة الأمصار وترجية الأعصار » تحقيق عبد المحمد آيتى ، طهران ، ١٣٤٦ هـ . ش . — الفارسية

حـ ـ مصادر بلغات غير العربية :

Bar Hebraeus — Gregory Abu al-Faraj : "The Chronography", translated from the Syriac by Ernest A. Wallis budge, Oxford University Press, London, 1932.

Beazley — C.R.: "The Chronicle of Novgorod", translated from Russian by : R. Michell and N. Fobers, London, Camden Society, Volume XXV, 1914.

Benedict — Brother "The Narrative", Ed. by . C. Dawson, Under the title "The Mongol Mission". London and New York, 1955.

Carpini	John of Plano : "History of Mongol", (HM)m Ed. by : C. Dawson, entitled : "The Mongol Mission", London and New York, 1955.
Carpini	Johan De Plano and William De Rubruquis : The Texts and Versions, Ed. by : C. Raymond Beazly, London, 1903.
De Bridia	C. Friar : "The Vinland Map and the Tartar Relation", Edited and translated by R. A. Skelton, T. E. Marston and G. D. Painter, for the Yale University Press, 1965.
Grigor	Grigor of Akane : "History of the Nation of the Archers (The Mongol)", (HNAM), Edited and transleted by : R. Blake and R. M. Frye, Harvard University Press, 1954.
Paris	Matthew : "English History", Translated from the Latin by the Rev. J. A. Giles, D. C. L., London, 1668.
Polo	Marco : "The Travels of Marco Polo", translated into English from the text of L. F. Benedetto by Proffessor Aldo Ricciwith an introduction and index by Sir E. D. Ross, Edinburgh, 1931.
Polo	"The Book of Ser Marco Polo", Translated by Sir H. Yule London, 1926.
Rubruck	Friar William . "The Journey of William of Rubruck to the Eastern Part of the World", 1253-55, with two accounts of the earlier journey of John og Pian De Carpine, W. W. Rockhill, London, 1900, reproduced in 1967.
Rubruck	The Journey of William of Rubruck", with the title : "The Mongol Mission", Edited by C. Dawson London and New York, 1955.
Unknown	"The Secret History of the Mongols", Eng. tr., by : A. Waley, London, 1963.

ثانيا : مراجع منشورة حديثه :

ا ــ مراجع عربية :

ــ حذيفه الغامدى ، سعد محمد ،
« أوضاع الدول الاسلامية فى المشرق الاسلامى » ، العربية بيروت ، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م .

ــ « سقوط الدولة العباسية » ، بيروت ، ١٤٠١ هـ العربية

ــ « حياة جنكيز خان » تأليف فلادمير تسوف ، ترجمه من الروسية إلى الانجليزية ، مورسكى ، وترجمه « سعد حذيفه الغامدى » من الانجليزية إلى العربية ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ

ــ كتاب مخطوط تحت الطبع بعنوان « بيئة المغول الطبيعية وحياتهم الاجتماعية والدينية » .

ب ــ مراجع حديثة غير عربية :

Ayalon	"David : The Great Yasa of Chingiz Khan", SI., 1971, Vol. XXXIII, pp. 97-140 and Vol. XXXIV, pp. 151-180.
Barthold	W. "Turkestan down to the Mongol invasion", Gibb Memorial Trust, New Series, V, London, 1968, reprinted in 1977.
Dupuy	T. N.: "The Military life of Genghis Khan of Khans",: New York, 1969.
Fox	Ralf : "Genghis Khan", London, 1936.
Riasanovsky	V. A.: "Fundamental Principles of Mongol Law". Indiana, 1965.
Spuler	Bertold : "The Muslim World, The Mongol Period". translated from the German by F. R. C. Bagley, Leiden, 1969.

Vernadsky G. "The Scope and Contents of Chingis-Khan's Yasa, HJAS". 1938. 3 pp. 337-360.

Vladimirtsov B. Ya.: "The Life of Chingis-Khan". Translated from Russian by Prince D. S. Mirsky. London. 1930.

Walker C. C.: "Jenghiz Khan". London. 1939.